A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

301.413
D124h
v.1
c.1

الكتاب الاول

حياة المرأة

في السياسة والاجتماع

تأليف المدرسين في كلية فاروق الاول الشرعية ببيروت

هاشم الدفتردار محمد علي الزعبي

صدر

١٣٦٨ - ١٩٤٩

— الطبعة الاولى —

حقوق الطبع والترجمة محفوظة لدار الانصاف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على منائر الاصلاح والهداية والنور رسل الله أجمعين ، وعلى خاتمهم قرة عين الانسانية ونور بصيرتها محمد بن عبدالله وعلى آله البررة الكرام آمين .

-(قيمة المرأة في النصوص الدينيّة العالمية)-

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او أنثى بعضكم من بعض ... »

قرآن : سورة آل عمران آية ١٩٥

« النساء شقائق الرجال » حديث نبوي

« أيها الرجال ، أحبوا نسائكم ، ولا تكونوا قساة عليهن »
عهد جديد ، كولوسي ٣ : ١٩

« المرأة بهجة الحياة » كونفوشيوس

« لو تعرف المرأة كم في عينيها من قوة ، وكيف تستعمل قوتها للخير والسلام ، لحولت العالم من جحيم البغض الى نعيم المحبة » بوذا

« المرأة تمثال مجسم للألفة الانسانية والتسامح » لاوتسو

المقدمة

بقلم الطبيب الحكيم

خالد عطوى ناصيف

في عام ١٩٤٨ م و ١٣٦٧ هـ قدمت الى وطني لاداء فريضة الحج ، وكان ذلك حلماً فاتناً في نفسي طالما تمثلته وسعدت به .

ولشد ما أدهشني تأخر المرأة العربية الفظيع ، وكبير جهلها ، وعدم اقتدارها على تربية الجيل الحديث ، تربية استقلالية يستطيع بها أن يكون عضواً حيّاً ، يساهم في بناء الحضارة الانسانية مساهمة عملية صادقة ، يستحق بها الاجلال والاكبار ، بين الامم ، في عصر استطاعت المرأة في كل أمة ان تنهض بكل ذلك .

وعجبت أني لم أجد في لغتنا العربية كتاباً مختصاً جامعاً كل حياة المرأة في السياسة والاجتماع . في تربية الغرائز والعواطف . في التشريع والدين . في العلم والادب والصناعة . في إدارة المنزل وتربية الجيل . ويكون قبل كل شيء بعيداً عن صور الخلاعة المنتشرة في مجلات الشرق ، وأكثر مؤلفاته التي تتحدث عن المرأة.

فان هاتيك الصور المغرية المكشوفة تومىء منهج التربية الاصلاحي وتأتي عليه . وشر ما فيها من أثم يتغلغل في أعماق النفس رويداً رويداً ، ويظل هناك كامناً يعمل عمله الخفي ، حتى توافيه البيئة المناسبة فيظهر من جديد ، وقد تركز سلطانه في الوجدان ، ومنطقه المسلّح ، في هواتف الضمير والعقل ، وكم في الشرق من أوشاب يكتبون للمرأة باسم الاصلاح ، والدعوة للنهوض بها الى السعادة في الظاهر ، وفي الواقع يضمرون اصطيادها ، والتجارة

بها ، واستغلال سعادتها .

إنهم يهدمونها هدماً ، ويقوضون أركان بيتها تقويضاً ، ويفسدون عليها حياتها السعيدة المبنية على حرمة نظام الاسرة ، في ضمائر الشباب .

وعلى الرغم من كل هذا الافساد ، يمنون عليها ما يكتبون ، تراهم يأفكون في وجهها بكل جرأة أنهم بناة مصلحون ، وقد حزّ في نفسي هذا الاصلاح الفاسد الهدّام حزّاً عنيفاً ، وجعلني أتلطف ملحّاً بالرجاء الى الصديقين مؤلفي كتاب « دين ابراهيم » ان يدعا الآن إنهاء مجموعتها الدينية الكبرى ، ويضعا كتاباً جامعاً يمتاز بكل إصلاحات المرأة ، وأطوار حياتها على مدى التاريخ ، إذ لا أمل في اصلاح ديني عام ، ولا رجاء في هداية ، ولا وصول الى سعادة أو سلام ، وحال المرأة في الشرق العربي هذه الحال .

ولعل الذين يجهلون مدى تأثير المرأة في العالم ، ولا يعلمون شيئاً عن أدوار تاريخها الرائعة التي مثلتها ، ينكرون عليّ هذا الالحاح . ولكن ما جدوى إنكارهم ، والحقيقة — ما تنفك هي الحقيقة — شاء الناس أم أبو . وما دام الكل يعلمون ان المرأة هي أم الأجيال . وبمقدار علمها في الحياة أو جهلها ، واهتمامها بأمر الجماعة أو إهمالها وشجاعتها أو جبنها ، وسخائها أو شحها ، وتقدمها أو تأخرها ، تكون الاجيال . إذن ، فهذه هي الحقيقة . والحقيقة هنا مرّة ، لان الامم العربية متأخرة في الشرق جداً .

وليس لي أن أدين أحداً بمسؤولية تـأخرها ، هذه مسألة تعني قاطني الشرق أنفسهم .

ولن نجد غاية أسمى ، ولا أنبل ، ولا أجدى عائدة ، ولا أحفل بالمنافع ، من درس حياة المرأة على ضوء استعدادها التاريخي الرائع ، وإعدادها لذلك .

وإني فخور جداً حيث وفقت لأن أرصد بعض جهودي ، لمثل هذه الغاية السامية في مجتمعنا العربي . هذا المجتمع – وإن غادرته منذ خمس وثلاثين عاماً أحس شخصه وأنا أناهز العقد الخـامس – يملأ نفسي . ولئن أوجعني أن شاهدت بعد طول الغربة تأخر المرأة العربية الفظيع في إدارة المنزل . وطرق التربية وقلة العلم . فان فقدها ما كان لها بالأمس من قداسة كانت تتجلى في سلوك النـاس تجاهها ، وإكبارها في قلوبهم ، كجوهرة ثمينة من الخلق والفضيلة والدين ، حتى أطلقوا عليها اسم « حرمـة » أوجعني بصورة أشد .

وأحسب أني ما كنت أحس – وانا في سن الخامسة عشر – عميق جهل المرأة العربية ، وعدم قدرتها على تربية أبنائها تربية عالية مثقفة . بل أحسب أني كنت أعتقد الاعتقاد السائـد يومئذ ، أن علم المرأة يجتم عليها السقوط . ولكن حين هاجرت الى « كندا » وشاهدت أن علم المرأة يزيدها رعاية لمسلكها ، واجلالاً لمكانتها ، وحسناً لأخلاقها ، وفهماً عملياً لواجباتها ؛ كما شاهدت أثرها الرفيع في تربية أطفالها منذ نعومة أظفارهم ، وتقدير حق الامة والوطن وكريم الخلق ولطيف العشرة ، وإكبار العمل والسعي واحترام الحرية والصدق ، انفرجت أمامي الهوّة الواسعة المخيفة بين المرأتين

الاميركية والعربية .

وكم نعمّت بأطياف المرأة العربية الحديثة التي كنت تخيلتها أنها عرفت كل شيء ، لأنه لم يكن يدور في خلدي ، أن خمسة وثلاثين عاماً طافحة بأعظم الاحداث ، وأكبر الانقلابات التي رجت العالم رجاً عنيفاً ، تخلو من تأثير عملي نافع في اصلاح حياة المرأة في الشرق العربي ، لو لم أشاهد ذلك بنفسي ، في العام الماضي .

وكم أسيت لأمتي من كلمات مفضوحة نكدة سمعتها ، — حين نزلت في ميناء بيروت من الباخرة التي أقلتني من أميركا ، وركبت السيارة قاصداً الفندق ، وفي صحبتي الاهل والاصدقاء — لأنها كانت عندي دليل تربية وضيعة جداً في المنزل . ولاحظ المستقبلون علي ذلك ، فودوا أن يرفهوا عني ، ولكن آسوني أضعاف ما ظنوا أنهم يرفهون ، قالوا : « هذه بضاعة لدينا منها كثير » . وقد غمزني بعضهم بقوله : « وهل كندا تخلو من ذلك » ؟ فاهتجت إنصافاً للواقع والحق وقلت : « بكل تأكيد ، ما عدا متوحشي الأحراج » ويا حسرتي ، فقد تبينت صدق قولهم في الأشهر التي قضيتها . وهي كافية لأن تعطي حكماً صادقاً .

وإذا كان هذا حال بلاد هي لدى الامم كافة ، مهبط الوحي والنور والفضائل ، وموطن الرسل . فكيف تكون بلاد الشرق الاخرى التي تفقد كل هذه الميزات ؟؟ وما عسى أن ينفعنا قولنا : إننا معلمو الغربيين الدين والحكمة والعلم ، وقد تقدموا وتأخرنا ، وهل يكفي أن نعيش في أحلام الماضي السعيد ، وأغلال الحاضر الشقي تحز في رقابنا . ؟!

ألا إن المجموعة النفسية في الشرق مضطربة كل الإضطراب ، والتضحية البريئة في سبيل المصلحة العامة ، تكاد تكون واهنة . وقد شاهدت شعائر الأديان أشباحاً عارية من مثلها العليا. المقصودة بالذات ، مما جعلني أتأكد ، أن الامهات جهلن حتى تعاليم الأديان التي لا ينبغي أن تجهل في مهدها .

وقد تيقظت وأنا أجوب أول سوق في أقدم عاصمة عربية ، الى أشراك الأيمان وحبائل الأكاذيب وفخاخها ، سمعت بائعاً يمطر أيمان الطلاق المغلظة أنه يبيع بما طلب من ثمن وهو خسران ، ومشترياً يغرقه بطوفان من الأيمان المغلظة نفسها ، أنه استامها بالشطر ، وقفت أتأمل هذه المحاولات الآثمة ، وجزاف الايمان المتبادلة ، وفي النهاية هالني الأمر ، وايم الله ، باع البائع بأقل مما طلق لأجله ، واشترى المشتري بأكثر مما طلق لاجله ، فظهر لي عياناً أن الاثنين كاذبان ، وتبين لي بعد أن أكثرت التردد في الاسواق ، أن العقيدة العملية الدينية مفقودة ، والوجدان خرب ، والخلق منهار ، وأن هذه الحال لا تجعل الامة تصلح للحياة ، وأن المستقبل معها لا يبشر بخير أبداً .

وإذا كان القوم وهم مؤمنون بالله ، جل وعز ، والحساب والجزاء ، ويكذبون هذا الكذب الصراح المعلن ، فكم يكون كذبهم على أمتهم ووطنهم ، إن بدا لهم شيء من الربح الخاسر ، وحين دخلت الجامع والخطيب يعظهم ، ولم اجد مكاناً لشدة ازدحامهم ، خرجت قائلا : « يا سلام ما اكثر صلاتهم ، وقراءتهم القرآن ، وازدحامهم في المساجد » ! ! فقال مرافقي بكل برود :

« هم يجتمعون في المساجد ويصلون ويقرأون القرآن للبركة » .
فزجرته مهتاجاً قائلاً : ما أنزل الله القرآن الكريم الا ليكون للانسانية أرفع دستور فيه سعادة الجميع ، ولكن - شهد الله - كنتم كالأقزام تلبسون ثياب العمالقة ، فانقلب وجهه كأنه اسطورة .

ولا ريب أن كل ما شاهدته في تلك العاصمة ، وفي غيرها من خير أو شر ، يعزى أول الأمر الى ضعف المرأة التربوي ، وكيف لا يعزى الى ضعفها ، والنبي ﷺ يقول في جوامع كلمه : « الجنة تحت اقدام الامهات » يريد - فوق طاعة الابناء لهن - الارض التي يحللن بها فعلاً ، والارض التي يحللن بها لا تكون جنة تحت أقدامهن ، إلا اذا كن من خير المربيات الكاملات ، في أخلاقهن ودينهن وصدقهن ، واختصاراً في البيان وسمواً في الاعجاز ، عدل (صلى الله عليه وسلم) عن ذكر الشطر الثاني « والنار تحت اقدامهن » لوضوحه التام وحثا لايثار الشطر الأول ، وأنه الاجدر باهتمامهن وجهادهن ، وطيلة السهر من أجله . وعلى كل حال فان الارض التي يقمن عليها لا تكون ناراً تحت أقدامهن إلا اذا كن جاهلات شقيات ، لا يحسن ادارة ولا يقدرن مسؤولية ولا يفهمن واجباً . وقد استوحى حافظ « رحمه الله » هذه الحكمة النبوية الخالدة في قوله :

« الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق »

ولا يسؤني أن أصرح - ما دام الاصلاح رائدي - أني وجدت المرأة العربية ، بعد هجرتي الطويلة « هي هي » ولم تكن في تلك العاصمة بأحسن حالاً منها في سواها من مدن الشام والحجاز ،

وبدا لي أن كل ما أفادته المرأة العربية في عهود الانقلابات ، هو إدخال الرطانة الاعجمية في بيتها ، والقضاء على عروبة بلادها ، ومقومات أخلاقها وشخصيتها ، بل والذي أفادته أكثر من كل شيء ، هو اقتباس خلق الممثلات الاميركيات ، أما خلق الاميركيات بنات الاسر الكريمة من تضحيات في سبيل الوطن ، ومغامرات وإعداد لكسب الحرب ، وبذل في سبيل الحضارة والعلم ، ومفاداة ورضا بالكدح في تخفيف ويلات البائسين ، وكل ما يرفع مكانة الامة ، ويسمو بها الى مثل الانسانية العليا ، فهو يكاد يفقد إلا من مجاهدات صابرات ونبيلات كريمات ، في كل مقاطعة عربية ، يعددن على أصابع اليد ، مما لا يغني في سلم أو حرب غناء .

وأني لا أستطيع ان أنكر أن الفتاة العربية الناشئة ، أخذت تعنى بالمعرفة والعلم ، وإدارة المنزل ، وتربية الطفل على نسب متفاوتة في ناحية وناحية ، ولكن - يا حسرتي - هذه العناية لم تكن على أصول مثل الاسلام العليا التي ما أنزلت إلا للنهوض بالمرأة ، نهوضاً يسمو بها الى الانسانية المهذبة ، وذروة العلم الرفيع ، وإعداد الجيل لقدس السعادة والخير .

ولعل الذين لم يغتربوا يحسبونني أبالغ حين أعلن صراحة أن المرأة الاميركية - غير الممثلة طبعاً - هي اقرب ما تكون الى روح مثل الاسلام العليا . يعرف ذلك الذين شاهدوا أعمالها عن كثب في الحربين العالميتين . وانا لا أعرض بالمرأة في الشرق ، لأن احداث فلسطين الاخيرة لم تدع لقائل قولا .

وإني حين اقول : إن المرأة الاميركية اقرب ما تكون الى

روح المثل الاسلامية العليا ، اقولها وانا ازجي بين يدي قارآت هذا الكتاب ، اصول التشريع المتعلق بالمرأة لدينا ، ليعلموا أنه عين ما يجدونه من تشريع للمرأة منذ فجر الاسلام الاول .

(١) يبيح القانون لدينا حق العلم للمرأة كالرجل تماماً ، وهذا عين ما جاء به الاسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »

(٢) يعطي القانون للمرأة حق التملك ، بعد أن كان هذا مفقوداً ، حتى قبل عشر سنوات في فرنسا ، وهذا الحق موجود في الشريعة الاسلامية من اول يوم .

(٣) اشتراك المراة في الاعمال العسكرية الرسمية ، مع القاء المسؤوليات الخطيرة ، وهذا واضح في التشريع الاسلامي الحربي ، وفي الغزوات النبوية .

(٤) حريتها التامة لدى الزواج وتحريم الاكراه ، والمتاجرة بها ، وكم من بحوث مستضيفة في التشريع الاسلامي حول هذه المواضيع .

(٥) مساواة حقوقها بالرجل ، واشتراكها في اعباء بناء الاسرة وتحمل المسؤوليات ، وتقدير اعمالها ورأيها ، وهل تجد اصرح في ذلك من قول الله تعالى « ولهن مثل الذي عليهن » وقول رسوله ﷺ « النساء شقائق الرجال » ؟؟!

هذه بعض شواهد يسيرة ، تنبيء عن صلة المرأة الاميركية الوثيقة بجذور التشريع الاسلامي ، ومثل هذا البحث ، لو حاولت الافاضة فيه بعمق ، لألتهم سفرا جامعاً ، واحسب أن المؤلفين سيكفيانني مؤونة الافاضة فيه . في جزئيها الخاصين بتاريخ « حياة

المرأة في التشريع » .

والآن يهمني أن أعلن صراحة أن لا أمل في نجاح المجتمع العربي ، ولا رجاء له في حياة او اصلاح ، الا اذا صلحت المراة فيه قبل كل شيء ، ولا صلاح للمرأة العربية ، الا اذا عادت الى اخلاق جداتها المؤمنات الصابرات ، والمجاهدات المضحيات ، والعالمات النبيلات ، والمربيات الساهرات ، والمحتفلات بزينة النفس ، اكثر من احتفالهن بزينة الجسد ، التي لا تدفع ضيما ، ولا ترد عدواً ، ولا تهذب جيلا ، ولا تقوم اسرة .

ولن تستطيع المرأة العربية العودة الى اخلاق جداتها النبيلة ، الا اذا شفيت من هذه الامراض :

(١) نبذ الخرافات الملصقة بالدين بهتاناً ، لانها تنأى بها عن مثل الاسلام العليا ، ولا إنسانية ولا اخلاق ولا تضحية ، ولا علم ، ولا مجد ، الا بالعودة الى تلك المثل ! !

(٢) ان تطالب الدولة بتحريم المؤلفات الخليعة ، والصور الفاحشة ، والاغاني المنحطة ، والضرب على ايدي المتاجرين بها ، وإبدالها بالاغاني الحماسية ، والاخلاقية والتربوية والانسانية والعاطفية الكريمة ، شأن الاغنيات المذاعة في المجتمع العربي إبان النهضة الاولى ، وشأن الاغنيات المنتشرة اليوم في اميركا ، ولا تعجب قارآتنا حين يجدنني استعرض الاغاني هنا ، إذ هن لا يجهلن ما للأغاني من كبير التأثير ، على نفسية الطفل والشاب والزوجة ، لكثرة ما تلوكها ألسنة الامهات والمربيات وسواهن تزجية للوقت ، وتسهيلا للعمل ، وبالاحرى لدى الحفلات .

(٣) إباحة رؤية الخاطب للمخطوبة كما جاء به الاسلام ، وعدم زواجها منه الا باقبال الطرفين ورضاهما ، والا كان الزواج سبيلاً وعراً يفضي الى الطلاق ولو بعد حين ، وفي ذلك اكبر الخطوب ، لان هدم الاسرة بعد بنائها وتكوينها ، هدم للمجتمع . اذ تفشو فيه الضغائن ، ويكثر فيه الاطفال المتشردون ، وتستطير الامراض .

والطلاق مبغوض في كل الشرائع ، وملعون من يفعله لغاية دنيئة في النفس ، وحاجة غير شريفة ، فهو أبغض الحلال الى الله ولن يكون حلالاً ، اذا لم تكن هناك اسباب قاهرة شرعية مبررة ، تعادل الاضرار الجمة التي سوف تنجم عنه ، والتي تضر بالاطفال والاخلاق والمجتمع ، ولم اجد في كل تجوالي ، في الاشهر التي قضيتها في المجتمع العربي بلدة يكثر فيها الطلاق كثرة فاحشة مهينة ، يزلزل ، انسجام الاسر ورباطها المقدس ، ما رأيته في دمشق ، وان نظرة واحدة في سجلات المحاكم هناك ، والاتصال بالاسر ، والاصغاء الى حديث المتزوجات عن ازواجهن الاول ، والالمام المتكتم بالطلاقات الواقعة في غفوة المحاكم ، تكشف المدى البعيد الذي وصل اليه انحلال الاسر وتفككها ، واذا لم تسارع الحكومة ، ورجال القضاء بوضع اللوائح القانونية الصارمة ، التي تضرب على ايدي المطلقين الاشرار ، الذين يعتقدون أن المرأة خلقت للمتاع ، لا للمساهمة في بناء المنزلين ، منزلها الاصغر «البيت» ومنزلها الاكبر «الوطن» ، وتحمل اعبائها واعداد الذرية ، للنهوض بها الى المثل العليا ، فان ما تضمره الغيوب من الاحداث فوق ما يقدره الكاتب في مثل هذه الصفحات .

(٤) المتاجرة بالمهور والمغالاة بها ، واسوء ما رايته في بلاد الشام هو ان الآباء يزوجون الاموال – والاموال ظلال خداعة تبدو وتختفي – ولا يزوجون الحياة ولا الاخلاق ، وكم في زواج الاموال من نكبات ، وكم في زواج الاموال من ضحايا ، وانك تراهم اذا حل بينهم رجل توسموا فيه اليسار ، تدفقوا حواليه ، بأطياف المغريات المسحورة ، وهذا يهدم من كرامة المروءة والدين والوطن . . .

والآن استميح القارآت الكريمات عذرا حين امسك يراعي وافتح بين ايديهن صفحات هذا السفر الخاص بحياة المرأة « في السياسة والاجتماع » وانا اقول – انصافاً للحق والمعرفة واكباراً للجهود والقيم ، وتخليداً للاخلاص والصدق – : إن في هذا الكتاب لاصلاحاً وثقافة ، وإن في هذا الكتاب لمجداً وسعادة ، لكل نساء الانسانية ، إن كن يؤثرن لانفسهن الاصلاح والثقافة والمجد والسعادة ، على اقداس الحياة السامية الرفيعة ، والمثل العليا التي تليق بكرامة المراة الحديثة ، المتطلعة الى الامجاد والعزة والكرامة والانسانية والخلود وجميل الاحدوثة ، وحسبي ذلك وكفى .

تورانتو « كندا » ١٣٦٨ – ١٩٤٩

خالد عطوى ناصيف

التوطئة

وضعنا هذا الكتاب في غمرات احداث هذا العصر المادي ، وجبروت الانقلابات ، وتطاحن المصالح السياسية ، واشتباك الاطماع بين الدول الكبرى في العالم .

وضعناه، ونحن على اشد ما نكون اشفاقاً على امتنا الانسانية من جراء ذلك ، وقد اثارنا على وضعه : مجموع الاشياء الآتية : —

(١) صرخات المصلحين

سمعنا نداآت المؤلفين والمؤلفات الذين يحثون المرأة على النهوض ويوجبون تعليمها ، ويجهدون في تهيئتها ، لان تكون اماً صالحة ، ومربية انسانية كاملة لابنائها ، وقائدة ماهرة لادارة منزلها ، وناقدة ساهرة على حفظ حقوق الامة ، ومدربة مستعدة لدى الخطر المفاجىء ، للاشتراك بالكفاح ، والذود عن الوطن ، وداعية للسلام العام في العالم .

أجل ، أهابت بعزائمنا نداآتهم ، وشدت من قوانا ، وجعلتنا نغامر بالجهود والسهد ، ونتردد معاً في كل فرصة على شتى المكاتب مستوعبين مختلف الاسفار في حقول المرأة ، منعمين نظرنا في حياتها ، قديماً وحديثاً ، في السياسة والاجتماع والدفاع والتشريع والعلم والدين والتربية ، ثم نضع كل ذلك في اسلوب فاتن جذاب ، وتبويب رائع مسحور ، اذ لا تزال تدوي في آذاننا نداآت الطبيب الحكيم السيد خالد عطوى حين وفد الى هذه البلاد من

اميركا ، حاجاً البيت الحرام استنهاضاً للمرأة، لما شاهد من تأخرها الفظيع لدينا ، وتعلقها بالتافه الزائف من بهرج الحضارة الحديثة ، مما لا يصلح للحياة ، ولا يغني فتيلا في الذود والكفاح .

(٢) سيل مؤلفات المتاجرين باسم المرأة :

نحن لا ننكر أن موضوع المرأة هو موضوع الحياة ، وأنه الموضوع الذي يقبل الزيف والاختلاط ، واختراع الصور والالوان، وشتى الاساليب الساحرة الجذابة ، التي تبتكر للتجارة والربح ، وهذا الذي لا ننكره ، ولا يستطيع ان ينكره سوانا ، هو الذي جعلنا نتجهم في اوجه اولئك الكاتبين المتاجرين باسم المراة ، وينادون زاعمين انهم ما كتبوا الا اشفاقاً عليها من الانهيار والفناء، فهم لا يعرضون مؤلفاً ، او يصدرون صحيفة ، الا وعري المرأة يغمرها بأطياف مغرية مسحورة ، كأن عريها هو ذاك الاصلاح المنشود ، وهم لا يكتبون كلمة عنها ، او يقصون قصة ، الا ويخترعون من احداثها ما يدل على سوء طويتهم ، ونزوات انفسهم المريضة .

أجل ، اشفقوا على المرأة ، أي اشفقوا على أن لا يفوتهم استغلال كرامتها والتهام شرفها ، فاستمطروا مدامعها واوجاعها ، بحرمانها من نعمة بناء الاسرة ، ليفيدوا نشوة ومادة ! !

أولئك الهدامون ، وأولئك المدمرون ، وأولئك أعدؤها في أثواب الاصدقاء ، فلتحاول المرأة أن تجاهدهم لتفلت من براثنهم الحديدية ، كي ترى أي حرب يعلنونه عليها ، في اشفاقهم الماكر .

ذاك اشفاقهم ! ! اما نحن فاشفاقنا عزائم انتضيناها ، ومعاول هدامة ، جئنا بها لنهدم تلك الاغلال الحديدية ، وكل همنا

أن نظهر للمرأة كنه حياتها بعبارة صريحة واضحة ، ومـــا يريده اولئك منها ،خشية أن يعيشوا بها مرتين ! ! مرة بالتفلت من تكاليف بناء الاسرة المرهق ، الذي اوجبته الطبيعة والاديان عـلى الرجل، لينالوها بحكم الغريزة بثمن بخس ، وإن قضوا على حياتها وشرف مستقبلها ، وحرموها سعادة بنـاء الاسرة من ابناء وحفدة بررة ، ومرة لنفاق تجارتهم في شتى نواحيها ، غير مكترثين ، لمـــا لها من حرمة واقداس ، في بقاء النوع وتنمية الحياة ، وطهرها وشرفها ، فهم ذوو اغراض يخترعون باسم المراة السقطات ، ويهدمونها باسم الاصلاح ، وينكبونها باسم الحرية ، خدعة لها وتلبيساً على المجتمع ، « واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون ، الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (١)

الا ان المصلحين هم الذين يؤثرون ان يعيشوا تحت وطـــأة التبعات والتكاليف ، في بنـــاء الاسرة التي تنهض بسعادة المرأة ويأبون ان يسقطوا بها مهما كانت البواعث ، ومهما كانت الاسباب لان المرأة يستحيل أن تؤثر السقوط لنفسها ، اذا لم يسقط بهـــا الرجل ،منتهزاً فرصة عوزها ، وسوء ظروفها ، وبلبلة حالها .

(٣) عنف الحملات الموجهة الى المراة :

ان الحملة على المراة لا تنتج اصلاحاً ،ولا تقوم عوجا ، ولا تجعلها تؤثر الخير والاحتشام وتجفو الشر والابتذال ، وان كانوا يحسبون انهم يحسنون صنعا بحملاتهم ،وأنهم ينهضون بها الى جلال المثل العليا،

(١) قرآن ١ - ١١ و ١٢

والقيم الانسانية الخالدة ، وروح الوحي الالهي ، ومع ذلك تكون النتيجة سوى ما يحبون ، إن كانوا مصلحين حقاً ، وقد اثبتت تجارب علم النفس أن كل إصلاح للمرأة مع ترك نفسيتها على حالها ، وترك البواعث والاتجاهات ، غير مجد ! !

أجل « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فتغيير النفسية ، وتغيير بواعث الأجيال ، يجب أن يكون قبل عرض الاصلاح المنشود .

(٤) تأخر المرأة لدينا في الاقتصاد والسياسة والدفاع :

وذلك لأن الرجل والمرأة جناحا الامة وليس في الامكان أن تنهض أمة ، وأحد جناحيها مهيض كسير .

التأخر في الاقتصاد : أما تأخر المرأة في الاقتصاد فهو واضح ، يمكنك أن تفهمه من مهارتها في إخفاء الثروة ، وعدم القدرة على تنميتها ، والاستفادة منها ، وبذلها في وقت الحاجة ، لايقاد روح العلم والاعداد والنهضة ، وإذا كان هذا حال المرأة الاقتصادي لدينا ، فكيف يكون حال نسلها وبيتها الأصغر والأكبر .

التأخر في السياسة : والمرأة لدينا لا تحسن من السياسة سوى التبرج في أفواه الطرقات لدى قدوم زعيم أو سفير ، تفرح بالزينات والاحتفالات ، وتطرب للمظاهر الخداعة ، تفرح فرح الأطفال وتطرب طربهم ، وإذا كان هذا كل سياسة المرأة لدينا ، فكيف تستطيع أن تنتقد اعمال السياسيين والزعماء وتعطيها موازينها الصحيحة الدقيقة ، وحسابها الصادق من خير أو شر ، ومن مدح أو قدح بل كيف تستطيع أن تربي الساسة العبقريين ؟ ووجود امرأتين

أو ثلاث في كل إقليم عربي ، لا ينهض دليلاً على أن المرأة العربية تحسن السياسة او أخذت تحسنها في هذا العصر .

التأخر في الدفاع : وتأخر المرأة في الدفاع الحربي لدينا بالغ حدّه، حسبك أن تعلم أنها لا تزال في غطيط نائم لذيذ، لا تحسن حتى تسيير قوافل الابل والعربات ، بله ضرب القذائف اليدوية ، وقنابل الطائرات والدبابات ، وكل عدد الحرب الحديثة ، وكل جهاد المرأة لدينا إذا ألمت كارثة ، أو نزلت نازلة ، أنها تصرخ في أبواق الصحف ، تستنجد حماسة الرجال ، وتناشدهم الذود عن البيت الأكبر ، متعللة باعتذارهم عنها .

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

فاذا بالرجال يفقدون سعة علم (الميكانيك) الحديث، ويفقدون المدمرات وجبروت المغامرة ، بالأنفس والثروة ، للابقا على حياتهم، بل كادوا يستنيمون إلى ما استنامت اليه أزمانا طويلة ، وهم مستمتعون بجر ذيولها ، واسترسال غدائرها ،وضوء حلاها ،لولا أن الحياة لم تترك لهم الاستنامة ، ولم تدعهم يستريحون ، بل أوجبت عليهم العمل والتضحية ، إذ هما سبيل الحياة .

(٥) تطلع الاوساط الى سفر جامع في حياة المرأة :

تتطلع الجمعيات النسائية والمصلحون ورجال المعارف ، الى سفر جامع يتناول تاريخ حياة المرأة تناولاً علمياً ، فيه جميع الاصلاح المنشود ، وفيه تصوير إمكانيات المرأة ، وفيه عرض أدوار المرأة الخيرة ، التي مثلتها على مدى التاريخ ، وقد حدا بنا هذا

التطلع ،وهذه الرغبات الملحة أن نعنى بهذه الناحية المهملة المطلوبة، فجمعنا ما لدينا من المحاضرات والنصوص ، ووضعناه في أسلوب مشرق جذاب ، مع مراجعة الاسفار الحديثة والقديمة ، واقتطاف ما يتعلق بحياة المرأة من هنا وهناك .

وقد تشعبت اتجاهات ابحاثنا، وترامت بنا الى سهوب جد فاتنة ، وجد مختلفة ، آثرنا أن نضعها كتباً لتنسجم فيها وحدة الموضوع ، وروح الفكرة ، وتجيء منتظمة كذلك :

الكتاب الاول والثاني : اقتصرنا فيهما على حياة المرأة في السياسة والاجتماع .

الكتاب الثالث والرابع : جعلناهما يتناولان حياة المرأة في الغرائز والعواطف ، وتربية المجموعة النفسية ومدى تأثير المرأة في توجيهها .

الكتاب الخامس والسادس: خصصناهما لحياة المرأة في التشريع ، على مدي تطور العصور والاجيال ، بالنسبة لها ، وبالنسبة لعملها فيه .

الكتاب السابع والثامن: يشتملان على حياة المرأة في الأديان والعلوم والآداب والصناعات ، قديماً وحديثاً .

الكتاب التاسع والعاشر : يبحثان في حياة المرأة من ناحية الغريزة الجنسية ، وتهذيب تربيتها في أبنائها ، وتدبير المنزل ، وتربية الاطفال الصحية وأخيراً « كيف تستطيع المرأة أن تتحكم بيد العلم في تعيين الجنين » !!

ملحوظة لا بد منها

إنا نقدم أحر رجائنا إلى قارآتنا ، قبل أن يمضين في متابعة الدراسة والنظر والنقد ، أن يلاحظن هذه النواحي الثلاث التي جعلناها هدفنا في كل بحوثنا التي تمر بهن :

(١) لا نذكر إلا جانب الخير الشيق من حياة المرأة ، الذي هو الأسوة والقدوة للنهوض بالحياة ، الى الخلق والحضارة والفن ، فاذا رأيتنا نتحدث عن (كليوباتره) و (شجرة الدر) و (شغب) و (إزابيل) حديثاً يتناول جانب الخير في حياتهن ، معرضين كل الاعراض عما قيل حولهن ، ذلك لانه مبدأنا فيما نكتب ، على أننا نعتقد أن بعض الذين كتبوا في حياة المرأة . من مؤرخين وسواهم ، كانوا متأثرين بوحي الساسة والقادة ، في هدمهم لكل ذكية لامعة ، لأنهم يرونها تحد من استبدادهم ، وتصارع سلطانهم الغاشم .

(٢) إنا نعرض عمداً عن التحدث عن المرأة إذا كانت سياستها إقليمية ضيقة ، أو محاربة غير مدافعة في سبيل صد العدوان ، وتأييد السلام ، كقرة العين البهائية التي مزقت وحدة إيران بثورتها الرعناء ، وسجاح التغلبية زاعمة النبوة ، وأم قرفة التي حاربت النهضة الاسلامية في مهدها ، لأن عقليتها القبلية لم تستطع هضم مثلها الانسانية العليا ، وبوثنة الرومية التي لم ترع قداسة بيعة القديس بطرس صخرة سيدنا المسيح وحواريه ، والكوشية المخدوعة التي حاولت أن تنال من قداسة سيدنا موسى ما تنال . . .

وإنا نعرض عن الاشارة الى مراجع سيرهن تنزيها لقارآتنا عن أن يتعرفن اليهن بأية صلة .

(٣) وبما نذكر في كتاب من كتبنا امرأة ونتحدث عن الناحية المناسبة للكتاب، ونعرض عن ناحية أخرى لنبقيها ذخراً في كتابها المناسب لها، فلا يدورن في خلد القارىء أن تلك الناحية التي سكتنا عنها لم نلم بها.

(٤) لا نذكر في كتابنا المرأة التي لا تحفل بوقتها أن يضيع في غير عمل إنساني كريم، نشيده لها مجداً وعزاً وذكراً، ولا المرأة التي تنفق الساعات الطوال حيال المرآة في سبيل إسرافها في زينتها وزخارفها، غير حافلة بضياع بيتها وأبنائها وأسرتها، ولا المرأة الجاهلة الحمقاء، التي لا تحمل الروح الديني السامي، وفكرة العمل للجامعة الانسانية والسلام العام. ولا المرأة الشحيحة التي لا تبصر اسمها في بناء جامعة أو مستشفى أو مدرسة أو ميتم أو معبد أو أسعاف أو أي عمل قومي كريم.

وختاماً يسرنا أن نعلن أنا تعاقدنا على أن يكون عملنا مشتركا في تأليف هذه السلسلة الخالدة، وجمع موادها، وأن يتولى الاستاذ محمد علي الزعبي التعليق الى مراجع تلك المواد، والاشارة اليها، كما يتولى عرضها في ثوبها الفني الرائع، واسلوبها الفاتن الاستاذ هاشم الدفتر دار المدني، وإنا لم نقصد من وراء هذا العمل الجاهد الشاق، سوى الاصلاح، وتهذيب فكرة المجتمع في نظره الى جلال مكانة المرأة، وتأثيرها في الاصلاح والنهضة والخير، لتفهم المرأة مكانتها كانسان، لها رسالتها الخاصة وتكاليفها التي يجب أن تؤديها على أحسن وجه، وأكمل إبداع، وأنبل غاية، وأطهر منزع. وفي ذلك للجيل الجديد كل الخير والهدى والتقوى والسعادة والحرية، وكل الاصلاح والمجد، والمثابرة على الاعمال، والتقدم والقوة.

المرأة في السياسة

سياسة المرأة في الشرق الادنى

نريد من السياسة إيثار مصلحة الانسانية والأمة على كل شيء، والمحافظة عليها، ودرء الأخطار عنها، والنهوض بها الى العمران والحضارة والسيادة والمجد. ولا ريب أن للمرأة شطرها من كل ذلك، إذ هي الجناح الذي لا تستطيع الانسانية أو الأمة أن تحلق في أية ناحية إلا بمعونته وامداده.

ونحن حين نتغلغل في أعماق القرون، ونقلب أعيننا في المجتمعات الانسانية القديمة، نشاهد أن للمرأة حظها الكبير في تصريف السياسة والملك، وفي الدعوة والعمل للحب الانساني العام.

ها نحن أولاء نطل من أعلا ربوات اليمن فنشاهد ملكاً كبيراً ومدينة فذة، وشعباً غنياً مترفاً مجداً عاملاً.

نشاهد أنهاراً غزيرة مطردة بدقة ونظام، من سد مأرب الهائل وجواً صافي اللون، مشرقاً بطبيعته الفتانة، وخمائله الفينانة الممتطية مناكب الاحواض، وظلالاً ندية ناعمة وارفة هنا وهناك، وبلابل تغرد منتشية بالحياة الخصبة الوادعة، والنسائم العبقة، وقطعاناً تروح وتغدر بين ظلال المروج والأودية، وهي تفيض بدانة ورسلاً.

ونبصر المحيط الهندي وسفنه الماخرة ، الموقورة بذخائر الهند ، وأحسن عروضها التجارية ، على مرافيء فنية وسيعة ، وقوافل المتاجر العربية تسلك أعظم فجاج الجزيرة الى الارض المقدسة التي باركها الله ، تسلكها بين جنات معروشات وغير معروشات ، ذات اليمين وذات الشمال ، ولوافح الرمضاء وسموم الهجير تنسكب خصرة على الوجوه والأطراف ، وتثوب هاتيك القوافل بخير مصنوعات فارس والروم ، لتبعث للهند بدل ما جاءت به .

ونرى المصانع جاثمة في البطاح الفسيحة ، وأبراجها تكاد تغيب في غمار السحب ، وأهازيج العمال تسد الفضاء ، والركبان حولها يروحون ويغدون بأجود منتوجاتها (١) .

ونرصد دولة ذات بأس وقوة ، وندوة حافلة بالساسة المفكرين وذوي الرأي الناضج البعيد ، وملكة دستورية هي الشمس نوراً وجلالاً واحتراماً ومكانة ، مدعمة بكل ما في وسع قوى الدولة الحربية كل الادعام ، غير وانية عن تشييد العمارات البحرية ، وتعبيد الفجاج وإضفاء الأمن ، تأمينا لسير القوافل .

تلك هي (بلقيس بنت شراحيل) العربية التي يقول الله عنها « وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم (٢) » ، لا ريب أنه عظيم (٣) وكيف لا يكون عظيماً ، وهو عرش مملكة اليمن

---

(١) لم يجد المؤرخون اسماً يحمل صورة صادقة عن مدينة المصانع الكثيرة غير (صنعاء)

(٢) سورة النحل

(٣) يراها بعضهم عاهلة ، ولديها كل أسباب الملك والشوكة والسلطان ، اذ كان يتبعها اربعون ملكاً ، راجع الجزء الخامس من كتاب « احسن القصص » صفحة ٧٨

السعيدة ، أصل العروبة ومركز انتشارها (١) وموطن دولهـا وأمجادها ، عرش من العلم قوائمه ، ومن العدل سلطانه ، ومن الخلد صولجانه .

ها هي « بلقيس تشرف على جلسات دار الندوة ، وتقدم أنضج الآراء ، وأسمى الافكار ، في شتى الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، غير مبرمة امراً الا بعد الدرس والنظر ، وإجماع الملأ من رجال الشورى عليه حتى أثنى الله على تقيدها بنظام الشورى وبارك قولها في كتابه العزيز (يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون)

(بلقيس) هي الملكة الحكيمة الحازمة ، هي المفكرة السديدة الرأي ، هي السياسية الماهرة ، هي البليغة المؤثرة ، هي الخالدة الذكر في آيات الله الخالدة .

* * *

ها نحن أولاء في بادية الشام ، نجوب الرمال العفر ، والأودية السحيقة ، فنشرف على أرض فسيحة ، ونشاهد هضاباً وآكاماً ، تستكبر فوقها القلاع ، وتشمخ على قممها الحصون ، وقصوراً شامخة رفافة ، وأمواج النخيل تتعالى باسقات يمنة ويسرة ، ونسمع أهازيج الأمجاد والمواقع المظفرة ، ترنم بأصوات رخيمة ساحرة ، فنفهم أننا تجاه عروس الصحراء ، تجاه مملكة البروج ، وملتقى التجارات بين الشرق والغرب ، تجاه (تدمر)

---

(١) من اليمن انبثقت جميع الموجات العربية القديمة ، كالآشوريين في (بابل) والهكسوس في مصر ، والأكراد على تخوم فارس ، والفينيقيون على ساحل الشام .

وهنا نشاهد الملكة الباسلة العالمة (١) « زينب » مدججة بماضي أسلحتها ، والفيالق بين يديها تسير طوع أمرها .

أجل ، نشاهد قاهرة الروم ومخيفة فارس ، تركز أعلامها في تخوم الروم ، وعلى أعلا منارات الاسكندرية .

وكم تطيب أنفس قارآتنا ، حين نقدم اليهن الملكة العظيمة «عصمة الدين = شجرة الدر» (٢) لما أثمرت من خير، وأبدعت من عجائب ، وقد شاركت في إدارة السياسة ، مـا يناهز العشرين عاماً ، حتى ضربت باسمها النقود ، ونودي بها ملكة على أعواد المنابر ، ووقفت بشجاعـة وحزم ، ترد عن مصر عـاديات هجمات « لويس التـاسع » ، حتى أحرزت الانتصار في موقعة (دمياط) وأسرت لويس نفسه ، فافتدي بواسطة أمه « بلانش دوكاستيل » التي كانت تدير عرش فرنسا بالنيـابة عنه (٣) ، وقـد كانت « شجرة الدر » واعية حازمة ، لم يفتها الاطلاع على كل شئون الدولة ، مـا بعد

---

(١) تتقن أربع لغـات ، وتناقش صفوة العلماء المفكرين في أعضل المسائل ، وقد ظلت محتفظة بكرامتها وإبائهـا حتى بعد قهر الرومان لها ، وتخريبهم عاصمتها في عصر الامبراطور « اورليانوس » عـام ٢٦٧ م وقد خالها صاحب كتاب « أسرار النساء » انهـا هي الزبّاء ، والواقع ان مملكة الزبّاء على الفرات كما افاد ذلك صاحب الاغاني ، ١٤ ، ٧٠

(٢) تاريخ الجبرتي ١ – ١٤ ومجلة الرسالة ٥ – ٢٠٤٨ وأحسن القصص ٥ – ١٣٠

(٣) شهيرات النساء ، مصر مطبعة السعادة ١٣٤٣ – ١٩٢٤

عنها وما قرب، وما صدر اي مرسوم في دولتها ، يشتمل على مسئولية ذات بال ، إلا بتوقيعها المشهور « أم خليل » وهي أنبغ المتخرجات من « دار الحكمة » ولم يتقدمها في العلم والمعرفة إلا « ست الملك » وقد كان لشجرة الدر عطف خاص على سكان الحرمين الشريفين ، وكانت هداياها وتحفها تؤخذ في كل عام بمحمل (١) عليه مظاهر الدولة ، وأبهة الملك ، وهي أشرف خطة فكرت فيها ملكة للاهتمام بشئون البلاد المقدسة ، ولو توجهت أنظار الملوك جميعاً وجهتها من الخير والنهضة ، لكان الحجاز اليوم ، يرفل في سعادة العيش ، وأضواء العلم ، وروح الحضارة . وعناية الملكات والأميرات وشهيرات النساء بشئون الحرمين الشريفين لا تزال ، ولو صادفت وجهتها السامية ، في إنهاض العلم والمعرفة والاصلاح ، لرأيناهما أوسع جامعات ، وأكثر مؤسسات ، وأحفل مكتبات ، من رومية ، وهاسا وبنارس (٢) ويجمل بنا أن ننوه هنا بالاميرة « جميلة بنت الحسن الحمداني » ، التي نثرت بيدها عام ٣٦٦ هـ بدر الذهب في الحرمين ، حتى عم الرخاء والخير ، كل بيت من بيوت الحجاز ، وقد بلغ

---

(١) المحمل ، هو عبارة عن صندوق خشبي تحمل فيه التحف الى الحجاز مزخرف بالستائر الجميلة ، ويحمل على ظهر جمل ، وحين بالغ الناس في تقديسه ، منعت الحكومة السعودية ذهاب التحف في ذلك المظهر الخشبي ، ورضيت بها وحدها ، وقد كان للأتراك محمل من هذا النوع يقام من دمشق فيه عبرة السلطان وهداياه لأهل الحجاز .

(٢) راجع كتابنا « البراهمة » مطبعة الانصاف ، بيروت ١٩٤٨

ما نقلته من متاع وتحف حمولة أربعماية راحلة (١)

وهذه « قطر الندى » (٢) المرأة الفذة في شخصيتها وعبقريتها التي أوكل اليها الوصاية على نجلها (المقتدر العباسي) حين وفاة زوجها (المعتضد) ، لما أوتيت من حكمة وعلم وسياسة ، فأخذت له البيعة وطفقت تدير شئون الدولة ، بمعونة كبار القواد ، ورجال القضاء والشورى ، في الديوان العام ، ولبعد نظرها ما كانت تنفذ أمر في الدولة ، إلا بعد مدارسته والاجماع عليه .

وهذا طيف « صبيحة » (٣) الملكة الاندلسية التي كانت بارعة في معرفة نفسيات كبار الساسة وبعيد نواياهم ، فما كادت تشرف بنفسها على أعمال الدولة من طريق الوصاية على نجلها بعد وفاة زوجها (عبد الرحمن الناصر) ، حتى رأت من الحزم ، والنفع للأمة والدولة ، أن تسند رآسة الوزارة إلى أنبل وأشجع شخصيات الاندلس – المنصور بن أبي عامر المعافري اليمني – وقد جاء ما تم على يده من الايجاد آية على عمق معرفتها بخبيرة الرجال اللامعين .

وكم يسرنا أن تشرف قارآتنا معنا على حلب ، في عصر الايوبيين ، ليشاهدن الاميرة الحازمة (صفية خاتون) (٤) ، التي

---

(١) شذرات الذهب ٣ – ٥٥

(٢) اسمها أسماء أو شغب ابنة خمارويه ولقبها (قطر الندى) اهينت بعد وفاة ولدها المقتدر ، وإوقفت جميع أملاكها للثغور واهل الحرمين والفقراء ، راجع الخضري ٢ – ٤٨٩ وشذرات الذهب ٢ – ١٧٧ – ١٧٩

(٣) شهيرات النساء ص ١٦٥

(٤) الاعلام لخير الدين الزركلي ٢ – ٤٣٢

استطاعت بعد موت والدها ، أن تهيمن على المملكة ، وتحفظ كيانها وتسمو بها سياسياً وإداريا، مما جعل المؤرخين يأسفون للموت الذي عاجلها بعد ستة سنوات من تملكها، ولم يفسح لها لاتمام كل إصلاحاتها.

ألا إن مجتمعنا العربي قد اعتز منذ أقدم أجياله بالملكات السياسيات الخالدات الذكر ، اللائي نهضن بتكاليف الملك الفادحة والحضارة، والخلق والمعرفة ، إلى خير المثل العليا ، مما جعلهن أعلامَ التاريخ القديم ، وكيف لا يكنّ كذلك ، وعرش مصر العظيم وحده ، قد أضاء مفرقه خمسُ ملكات كُبر ، مثلن أدوارهن العبقرية ، أبجد تمثيل وأروعه ، وكانت الملكة « هتشبسوت » (١) واسطة العقد ، وجوهرة التاج بينهن ، لأن ملكها كان على مصر سعادة ورفاهية وخيراً ، فقد شيدت معبدها الخالد في (طيبة) آية الآيات في الروعة والجلال ، ولا يزال الى اليوم هدف السائحين ومثابة حجاج الآثار ، كما وجهت عنايتها الى الزراعة والتجارة فعبدت الفجاج واضفت الامن ، وحفزت الشعب إلى المغامرة واقتحام الاسفار ، واكثرت مجاري المياه ، وأحضرت أحسن أشجار العالم التي يمكن أن تعيش في مصر ، أحضرتها من مصوع وسواكن والصومال ، واستمرت ملكة محبوبة مباركة اثنين وعشرين عاماً .

مرحى مرحى لهن، كيف لا يكن أعلام التاريخ القديم ، وهذه « سميراميس » (٢) ملكة أشور التي ظفرت باعجاب زوجها الملك

---

(١) توفت عام ١٥٠٠ ق م ، اشهر ملكات التاريخ ٢٤

(٢) كان لهذه الملكة اهتمام كبير في المشاريع العامة —(يتبع)

« نينوس» وشعبه ، لما كان لها من حماسة فائقة مندفعة ، في النهوض بالشعب والقيام بالمصالح العامة ، حتى آثرها الملك والشعب باسناد الملك اليها بعد وفاة الملك ، وظلت تقود المملكة ، وتسوسها اثنين وأربعين عاماً ، وأخيراً آثرت الراحة والاستجمام ، فأسلمت الملك لولدها ، وقد امتدت بالمملكة وأفاضت في سهوبها ، حتى وطأت قدماها النهر المقدس (السكانج)

وهذه مدائن صالح لا تزال معتزة بأخلد آثار (جميلة) (١) ملكة الانبـــاط ، وهذه صحراء سينا لا تزال مرحـــة بآثار ملكتيها العظيمتين (حبيبة وشمسية) (٢) .

وتلك أمة الروم ، قد نجت من أفدح الاخطار ، على يد ملكتها (إيريني) (٣) التي عاصرت الهادي والرشيد ، وحاسنتها محاسنة عادت على مملكتها بالسلام ، والسعادة والهناء .

وكم كان لحسن إدارتها ، وسهرها على أمتها من أعمال تذكر باكبار الى اليوم ، والشعب لا يعرف الا الذي يجهد في خدمته ،

توفت بعد أن اعتزلت الملك عام ٢٠٦٩ ق م وقد ألهها بعضهم لما تم على يدها من أعمال زاعمين أنها تقمصت حمامة وطارت الى الملكوت ، ومن هنا جاء تقديس الحمام لدى الآشوريين وسواهم ، كما تجد ذلك مفصلاً في كتابنا (طفيليات وأساطير) راجع فاكهة الالباب في تاريخ الأحقاب للخوري بطرس ، مطبعة بعبدا ١٨٩٨ ص ٢١ و١٢٦ و كتاب ، أشهر ملكات التاريخ .

(١و٢) المرأة في التاريخ والشرائع

(٣) شذرات الذهب ١ ٣١٠

ويخلص له النية ، ويقدم مصلحته على كل شيء .

أجل ، هذا الشعب الرومي، حين رأى الامبراطور «قسطنطين» السابع ، منهمكاً في شهوات نفسه ولذاته ، متخذاً من مال الامة نفقات باهظة ، لم يصبر على الجور والحسف ، فهجم عليه في قصره ، وسمل عينيه ، وأنزله عن العرش، ولكنه وقف حيال أمه (زوا)(١) التي سهرت على خدمة الشعب ، وأوقفت حياتها عليه وجهودها ، وقفة المعترف بأياديها، المقر بخدماتها ، فأجلسها على ذلك العرش ، ثم قال لها : احكمي احكمي باسمي ، فانك أخلق بهذا الملك من ولدك وأجدر :

إن ملكت النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الاسر فكيف الخلائق العقلاء

ولا بد أن نستعرض (كليو باترة) (٢) التي استطاعت بحذقها ، أن ترث ملك البطالسة بوصية من أبيها ، وأن تحتفظ به على سعة ما بين أطرافه ، فقد كانت رايتها ترفرف على مصر والشام وليبيا ، محاولة النهوض به ، واجتياز البحر الى ضم ما ورائه ، لولا أن الاقدار أفلتتها من كل آمالها لان المملكة كانت ضعيفة واهنة في أخريات أيامها ، ولم يكن بين سكانها تفاهم اجتماعي صادق .

ويحلو لنا أن نمر بقارآتنا ، الى جزيرة هي همزة الوصل ، بين جزيرة العرب والهند ، جزيرة عرفها العرب القدامى ، وطوفوا في أرجائها ، وهاجروا اليها ، وتبعتهم أضواء الاسلام ، وترنيات

---

(١) شذرات الذهب ١ - ٢٧٩ ومحاضرات الخضري ٢-٤٥٧

(٢) ٦٩ - ٣٠ ق م ، اشهر ملكات التاريخ

القرآن ، تلك الجزيرة هي (مدغسكر) .

أجل ، يحلو لنا أن يتطوفن بها ، ويتأملن في مدنها وقراها ، ليشاهدنها رافلة في حلل ملكاتها الاربع (١) سعيدة معتزة بأمجادهن ومتابعة لفتوح شهية المعرفة ، لدى بعض القارئات اضطررنا أن نكفكف ما استطعنا من ذكر ملكات الشرق الادنى الكثيرات ، وأن نجعل (الزباء ابنة عمرو) ملكة العراق ، التي ترنم بذكرها الشعراء ، وضربوا بأقوالها الامثال ، ومجدوا بطولتها ودهاءها وجرأتها ، وانتصارها للحق ، خاتمة المطاف .

إنها خير ملكات العراق في الجاهلية ، لما أدبها الرائع وعقلها الوافر ، وتدريبها العسكري في حفر الخنادق ، ورصد الاعداء ، ولها فوق ذلك إقدامها الصارم ، ومغامراتها الصارخة ، وسداد رأيها ، إنها استطاعت أن تثأر لابيها القتيل ، وأن تنتصف له ، دون حشد جنود ، وسفك دماء بريئة ، إنها عمدت الى الدهاء والحيلة فخدعت قاتل أبيها بعد أخذ وردّ ومفاوضات طويلة ، الى الاقتران بها ، فأجابها مسروراً ، غير مكترث لنصح أصدقائه الذين صوروا له سوء العاقبة ، إن هو تورط بتسليم نفسه اليها ، وهكذا استطاعت (الزباء) أن تثأر لابيها ، وأن تريق دم قاتله وهو ينظر اليها نظرات تفيض حسرة وندامة ، على جهله بحقيقة المرأة الموتورة ، واستطاعت أيضاً أن تحسب للعواقب الف حساب ، وأن تهيء نفسها وقوتها للذود والدفاع ، وتلقي الصدمات حتى النهاية ،

---

(١) المرأة في التاريخ والشرائع

ها هي تخاطب (عمراً) حين قهرتها جنوده واجتازت خنادقها ، وأفضى الى قصرها يريد أن يفتك بها ثأراً لخاله ، قائلة له كلمتها المشهورة وهي تمتص خاتمها المسموم ، (بيدي لا بيدك يا عمرو) (١)

سياسة المرأة في الشرق الاقصى

ولا بد هنا أن نظعن بقارآتنا الى مملكة كريمة الى أنفسهن ، وذكرها لا يخلو من لذة ومتاع ، نظعن بهن إلى مملكة الهند ليشاهدن الملكة الانسانية المؤمنة (نورجهان) ذات الملك الكبير ، والسلطان النافذ ، في عشرات الجزر ، ملكة لها وحدها من الرعايا اربعون مليوناً ، ملكة تظل على عرشها ثلاثين عاماً ، لا يملها الشعب ، ولا يتبرم بها ، ملكة لها الكثير من أسباب الخلود والاحداث الرائعة

ألا إن حادثة واحدة تكفي لتلبسها جلباب الخلود ، وإن حادثة واحدة تكفي لتكون خير دستور انساني ناهض مجدد للأملاك والملكات .

لكن بعض أعمالها الخالدة . . .

(١) رأت هذه الملكة العظيمة قسوة التقليد الذي يرغم الزوجات الهندوسيات على حرق أنفسهن حين وفاة الازواج ، رأتها اثانية بغيضة من الرجل ، وضعفاً وخوراً من المرأة ، يأباها الله ، ويرفضها الدين ، وتزدري بها الحضارة ، فمنعتها بلباقة وحسن تصرف ، في تأنيها للقضاء على التقاليد الواهية التي تسكن الادمغة البالية ، وأكفان الموتى الرديمة ، ولا يحط من قدرها أن هذا التقليد القاسي

(١) الاغاني ١٤ - ٧٠

رجعت جرثومه الى الظهور مرة ثانية بعدها ، وقد ظل يبدو ويختفي حتى جاء الانكليز ، وأخذ يرجع الى قواراتها .

(٢) نظرت هذه المملكة العظيمة بامعان في معايش طبقات الشعب، فاوجعتها الأعمال المرهقة المجهدة التي تزاولها الطبقة الفقيرة، ومع ذلك لا تصل يدهـا الى كل حاجاتها الطبيعية ، من طعام وكسوة وتعليم ومسكن ، مما يؤمن لها بعض السعادة والراحة ، فعملت على إنشاء سوق يؤمن لها كل حاجياتها الاولية غير مضاف اليه أي ربح ، وأجرت للعاملين في هذا السوق رواتب من المالية وأسمته (سوق الشفقة) كما أكثرت من إنشاء دور العلم المجانية ، والمستشفيات ودور الايتام .

وكانت تعلم أن الامة الفقيرة لن يكون لها أي كيان دولي مرهوب ، فأخذت تعنى بالنهضة الاقتصادية فأنشأت معرضاً صناعياً تقام فيه المهرجانات ووجهت الدعوة الى مشاهدته ، لكل ، ممالك العالم (١) .

وكم يلذ لنا في هذا الفصل، أن نستعرض ذكرى « راضية »(٢) الفتاة المثقفة المؤمنة المصلحة حفيدة الملك الشهير « قطب الدين » قاهر المغول .

---

(١) راجع كتاب: حقوق المرأة في الاسلام ، للكاتب الرومي احمد بك آجايف، تعريب سليم قبعين، مطبعة الجمهور مصر ص١٣٦

(٢) راجع ص١٠٠ من كتاب (مشاهدات في الهند) للكاتبة الفاضلة السيدة امينة السعيد ، وقد خالت وهي مشكورة على عملها – ان الهند لم تشهد منذ بداية تاريخها الى الآن سوى (راضية)

لم تكن راضية خاملة الذكر في محراب التاريخ ، وكيف تكون ووالدها لما عرف من حذقها في السياسة وبراعتها في الادارة، وتعلق الشعب بها دون إخوتها الشباب، آثرها على ولاية العهد، ولم نجد في التاريخ ملكا آثر ابنته على اخوتها سواه، بيد أننا نجد الاشتراك في العصر القديم المصري والفينيقي واليوناني ، وقد كانت في ما أتت من أعمال جليلة على قصر مدتها التي لم تتجاوز الثلاث سنوات ، آية على فراسة أبيهـا ، وصدق حدسه في حكمتها وفضلها ونبلها .

الا إن الفتيات الهنديات لا يزلن يذكرنها ، باكبار وخشوع ، ويذكرن الاصلاحات الكثيرة التي قامت بها في الثلاث سنوات ، التي منحتها لها العناية الالهية مدة لتملكها .

وهاتيك « خديجة » (١) ابنة السلطان جلال الدين ، استطاعت بما أوتيت من مواهب عبقرية ، أن تؤثر في سياسة الدولة الهندية ، وتوجه النهضة خير توجيه ، فتكسب مودة الشعب والعلماء ، حتى هتفوا باسمها في أعلا المنابر ، بجانب اسم والدهـا ، وهذه ظاهرة جديدة في التاريخ ، لم تظفر بها ابنة ملك قبلها ولا بعدهـا ، فعل ذلك العلماء والشعب تمجيداً لاصلاحاتها الخيرة ، وإكباراً لأعمالهـا الخـالدة .

وما دامت قارآتنا تجولن في الهند ، واستمتعن بمشاهـدة ملكاتها ، فكم يحلو لنا أن يصعدن إلى قمة « إفرست » من جبال

---

(١) حقوق المرأة في الاسلام ١٣٧

هملايا ، ويتجهن الى مملكة عزيزة على نفوسهن ، عريقة الامجاد ، كريمة الأحساب ، مملكة الصين ، التي ضرب العرب بمدنيتها وعلومها الامثال ، وينعمن أنظارهن في جمال الصين ، وسعة ما بين أطرافها ، ويشاهدن « تروزهسي » (١) العاهلة الصالحة البرّة ، ذات القداسة والخلق والعلم والفضل ، كيف جاهدت في سبيل أمتها ، وقد تألبت عليها الدول من كل سهوب الارض ، بغير ما شفقة ولا رحمة ، ولا جناية جنتها ، حتى كادت تنتحر أسى ويأساً من حال امتها ، وحسب القارئات أن يدركن ما لها من مكانة في الدين والعلم والحكمة ، والتاريخ نعتها بأكبر مصلحي الشرق الاقصى « بوذا » إذ قيل عنها : بوذا العجوز » !! بل هذا رئيس الدين الأعلى « الدالاي لاما » الذي يدين له بالطاعة والاخلاص والمودة خمسماية مليون من البشر ، يغادر مدينته المقدسة – لهاسا – (٢) ومعابدها الفخمة ، ليباركها ويبادلها السفراء ، إكباراً لها وإجلالاً لمكانتها .

وهذا المجتمع الياباني ، كم هو فخور بأمجاد ملكته « سويكونتو » (٣) التي نظمته أروع تنظيم ، ولما رأى من عمق فهمها ، وتحرر عقلها وإخلاصها ، لله ولامتيها الصغرى والكبرى ، اليابانية والانسانية ، أيدها في كل الانقلابات التي أحدثتها ، بل أيدها حتى على دينه الشنتوي القديم فاعتنق معها البوذية من شعبها ، نحو خمسة عشر مليونا .

---

(١) توفت عام ١٩٠٣ ، أشهر ملكات التاريخ ١٦٣ – ١٧٤

(٢) للتعرف على (بوذا) ورئيس اللامات ومدينة لهاسا وعدد البوذيين وعقائدهم ، راجع كتاب (البراهمة) مطبعة الانصاف ١٩٤٨

(٣) توفت في القرن الثالث عشر للميلاد ، راجع المرأة في التاريخ والشرائع

سياسة المرأة في الغرب

وكم نجـــد من فخر وإعجاب حين نشاهد الملكة الانكليزية « بواديكا » (١) تـأبى الرضوخ والاستكانـة لجبروت الرومان وغطرستهم ، وتعلن الحرب عليهم على ما بها من ضعف ، وتثيرها دامية شعواء ، فلا تترك قبيلة ولا مدينة ولا قرية الا وتستثير فيها حماسة الأهلين ، وتبعث في نفوسهم الحائرة ، العزيمة والوعي واليقظة ، وتدفعهم دفعاً الى المغامرة والتأهب وأخذ الثأر والانتقام والتحرر من جور الرومان وأغلالهم الثقيلة ، التي توثق شعبها ، وتثقل عليه الفداحة والارزاء ، ومعها بنتاها وخير نساء الاسر المجـــاهدات الصابرات اللائي نذرن أنفسهن للحرية والمجد والشرف .

وحين أدركت أن ثورتهـا لم تفد حيـال جيوش الرومان الجرارة ، وأنها ساقطة في ميدان الشرف ، أبت أن تعيش ملكة على انكلترا تحت ظل الرومان ، وفضلت الموت الزوآم فشربت كاس الحمام سماً ناقعاً شهياً لذيذاً ، وكأنها تقول ما قالته أختهـا ملكة الفرات العربية حين تجرعت السم ، وهي تخاطب عمراً الذي يحاول أسرها بقولها (بيدي لا بيدك يا عمرو . . .)

وهذا العرش الانكليزي شاهد في القرن الخامس عشر الملكة (مرغريت أوف أونجو) (٢) وهي تمسك قوائمه وتكاد تركزها

---

(١) ملكة انكلترا في القرن الاول للميلاد راجـع كتاب عائلة هيلانة ص ٦

(٢) ١٤٢٩ - ١٤٨٢ راجع كتاب أشهر ملكات التاريخ

في قرص الشمس ، وتنظر الى البحر نظرات بعيدة عميقة. وما كاد يطل على انكلترا القرن السادس عشر حتى جاءت الملكة « اليصابات » (١) والشمس تشرق في ممتلكاتها لا تكاد تتوارى عنها ثانية من نهار ، وإذا البحر تمخره أساطيلها ، وهي تحمل راية السيادة البحرية .

وكم نجد من حكمة وإخلاص وبعد نظر ، في الملكة الأسبانية (إيزابيل) (٢) التي رأت من الجور الانساني، والطبيعة الحيوانية، أن ينقسم الجيران على بعضهم، فتنازلت عن عرشها لملك البرتغال ، وجعلتهما مملكة واحدة قوية ، ولو أن كل المتجاورين ، أخذوا بنظريتها ، وكان لهم عقلية كبيرة كعقليتها ، لما رأينا الوحدة الأوربية حلماً طائشاً ، والوحدة البلقانية خيالاً شارداً ، والقوم مثقفون متعلمون ، بل لما ظلت الانسانية مزقاً مبعثرة ، كل جماعة تكيد للاخرى ما تكيد ، والضربة حين تنزل ، تنزل على الجميع .

ولسنا بحاجة أن نستعرض الملكات القريبات العهد ، والمعاصرات ، (كفكتوريا) (٣) ملكة انكلترا و (ولهمينا)(٤)

---

(١) ١٥٣٣ - ١٦٠٣ راجع كتاب أشهر ملكات التاريخ

(٢) ١٤٥١ - ١٥٠٤ ، أشهر ملكات التاريخ

(٣) ١٨١٩ - ١٩٠١ ملكة انكلترا وأمبراطورة الهند ، حملت أعباء مسؤولية أكبر دولة في العالم ، قبل بلوغها العشرين من العمر ، الكتاب المذكور

(٤) تنازلت لبنتها (جوليانا) في ٣٠ آب سنة ١٩٤٨

ملكة الهولاند و(كاترينا)(١) الثانية ملكة روسيا و(جوزفين)(٢) مستشارة نابليون، لأن أطيافهن ما تزال ترفرف بيننا ، وذكرياتهن مستفيضة على الالسنة .

* * *

وهنا تستطيع القارآت المتابعات الدرس معنا ، أن يدركن قيم إمكانيات المرأة في السياسة والملك ، إمكانيات لا يشق لها غبار ، إمكانيات بارعة في الادارة والتنظيم ، والسهر على مصالح الأمة، والنهوض الى الحضارة والعلم، والشوكة والبأس، ويعلم الله كم تحملن من كوارث ونوازل ، وغارات مبيدات في سبيل ذلك .

* * *

الآن نعتقد أن قارآتنا، وثقن بعظة المرأة التاريخية ، في السياسة والملك ، واستوعبن أخلد أحداثها في معظم الأمم ، وأجلها مكانة وأمجاداً ، وإنسانية وتضحية ، والآن يجبن بصراحة عن السؤال الذي يخالجهن ، لدى تلاوة هذا الفصل ؟

لماذا قل الأخوات بالنسبة للأخوة في الملك والسياسة ؟ والجواب صريح وبسيط جداً ، ذلك لأن المرأة ، حين تعزف عن طلب الملك والسياسة ، لا تعزف عن عجز أبداً ، العجز محال ، وإنما المرأة بطبيعتها تجنح للسلم ، وتؤثر الخير وتشفق على البائسين والبائسات، وتبادر الى المساواة والرحمة والانقاذ ، هذه طبيعتها ، وحبذا هي من طبيعة إنسانية كريمة ، لو كانت لجميع الرجال لما كان كل هذا الشقاء والهول ، والحروب التي تبيد الشعوب في كل عصر وزمن .

---

(١) ١٧٢٩ – ١٧٩٦ ، الكتاب المذكور

(٢) ١٧٦٣ – ١٨١٤ ، الكتاب المذكور

المرأة والتوجيه السياسي

إذا نحن أعلنّا أن التوجيه السياسي، هو من صنع المرأة فحسب، فلا نكون مغالين أبداً، أنى تكون المغالاة وغرائز الطفل وعواطفه، يدٌ لتوجيهها، وغرسها ونمائها وتعهدها.

أنى تكون المغالاة وهي التي تقذف في قلبه شاباً شعلة الحماسة للأمثال السامية التي يجب أن يهدف اليها، حتى يسمو بها فرداً وجماعة

أنى تكون المغالاة، وهي التي تؤثر في نفس زوجها، من قرب أو بعد، أنفذ التأثير وأبعده.

هذه «أستير» (١) استطاعت أن توجه زوجها (أحشويروش) وولدها (كورش)، توجيهاً سياسياً رفيقاً بقومها، أتى على السياسة التقليدية التي كانت تحمل العنف والبغضاء.

وها نحن أولاء، نرى الملكين العباسيين، العريقين في المجد العربي، «المأمون والمعتصم» تدله أولهما بالفرس، وثانيهما بالترك، ومدّا لهما في ظلال دولتيهما من السلطان والجاه والمكانة، ما لم يمدا لقومهما العرب أنفسهم، ويمر السطحيون على هاتين الحادثتين اللتين غيرتا مجرى التاريخ، سبهللا، ولا يشيرون إلى تينك المرأتين القابعتين، في مجاهل نفسيهما، توجهان عواطفهما وتنفثان في أعماق أحلامهما الحدب والايثار، تلك للفرس، وهذه للترك، أي لا

---

(١) سفر استير (عهد قديم)

(٢) محاضرات الخضري ٢ — ٢٣٨، العقد الفريد ١ — ٢١٠

(٣) المحاضرات ٢ — ٣١٢، العقد ١ — ٢١٠

يشيرون إلى (ماردة) الفارسية أم المأمون ، و (مراجل) التركية أم المعتصم ، الأمّين اللتين ولدتاهما مرّتين ، جسداً واتجاهاً .

وما الحرب الذي نشأ بين (الأمين والمأمون) هذا يؤيده العرب ، وذاك يؤيده الفرس ، في الحقيقة إلا حرب بين (ماردة وزبيدة)(١) ، ونحن إذ نذكر توجيه هؤلاء الأمهات ، المختلف المتباغض ، بهذا اللون الدامي ، نذكره غير مكبرين له ، ولو كان توجيههن إنسانياً كريما ، لما كان ثمّ حرب ولا خلاف ولا خصومة ولا دماء بين أخ وأخ ، وقوم وقوم ، مما أفضى بهم جميعاً إلى الزوال .

وإنا نرى الدارسين اتجاه أصول الفقه الروماني ، وفروعه (القوانين الاوربية الحديثة) بعمق وقوة في القضاء والمحاكمات في الشرق يدهشون ؟ ! ! ولماذا لا يدهشون ؟ وهم يرون المكاتب العامة والخاصة ، طافحة بانتاج الآباء الوسيع ، في أصول الفقه الاسلامي وفروعه ، ومذاهبه العديدة المرنة المتجددة ، وقحط الابناء الفظيع في الانتاج والتجديد ، قحطاً مزريا معيباً ، جعلهم يعيشون متطفلين على فتاة موائد الآخرين .

وإن دهشتهم لتتفاقم ، حين يرون أولئك العباقرة من الفقهاء المجتهدين ما أنجبو أمثالهم ، ممن يقدرون أن يمثلوا عصرهم الحديث ، ويستخرجوا من أصولهم الفقهية الحية ، ومن مقضيات بواعثه ، ومناسباته المتجددة المتطورة ، مذاهبهم الفقهية القانونية ، بسبيل من الموائمة تقضي على الفقر المدقع والجدب المهلك .

ولو أنهم أنعموا نظرهم بعيداً عن المجتمع العربي ، وبعيداً عن

(١) محاضرات ٢ – ٢٣١

الرجال ، لسقطوا على النواة الاولى التي أحدثت كل هذا الضعف الفقهي ، أي لو أنعموا نظرهم في قصر (يلدز) وشاهدوا غارسة النواة الاولى ، أي شاهـــدوا « دوبوك دوريوري » (١) الام الفرنسية ، وهي تسكب روح التشريع الغربي وقوانينه وحبه ، وحب قومها في أميال طفلها السلطان (محمود) الثاني، لبطلت الدهشة.

على أن كبير تأثير الأم في انجاهات طفلها ، وهي بعد نوايات، هو الذي يجعلنا نجور في الحكم ، ونحمّل المرأة منذ أقدم الازمان، مسئولية العداوات والحروب بين الامم (٢) .

ويجب أن نفهم أن توجيه نوايات المجموعة النفسية ، وهي في دور الطفولة ، تشتد وتقوى على مرور الزمن ، ولن يستطاع قلع جذورها ، وكم تحتاج إلى معاناة شاقة مضنية ، لتكبت بواعثها وتأثيراتها فقط .

وأمثال هذه النتائج المريرة الفاجعة في التاريخ ، هي التي جعلت السياسة الواعية في هذا العصر ، تحظر الاقتران بالأجنبيات المريضات بالعصبيات الضيقة ، إذ لا بد أن يزغن بأبنائهن مزاغهن (٣) وينزعن منازعهن .

وأكبر الأمم السياسية في هذا العصر ، هي الامة الانكليزية ، لم تبح لموظفيها الاقتران بالاجنبيات ، لمرض العصبيات المنتشر ، وكم من عظة في ما أصاب « لويس السادس عشر » ، الذي فرّ هو

---

(١) سر انحلال الامة العربية ص ٢٠ و ٢٣٠

(٢) راجع وصية هند لولدها معاوية ، العقد ١ – ٥

(٣) مشاهدات في الهند لامينة السعيد ص ٢١ و ٨٢

وزوجه « ماري أنطوانيت » ، إلى النمسا ، بعد أن تداعى الملك على أيدي أولئك النمسويين الذين آثرهم على قومه ، ولكنه لقي جزاءه ، فقد قتلوه شر قِتلة (١).

وقد أكبر الفيلسوف الفرنسي « غوستاف لوبون » ، وعي الانكليز لشر هذا الداء فقال ، « لو سمحت انكلترا بتزويج موظفيها من نساء الهند ، لا نفصلت عنها » ، ذلك لأن شخصية المرأة الهندية ، معروفة منذ أقدم الازمان ، بالقوة والجبروت ، والصمود في وجه الاحداث ، وتقلبات الاجيال .

وقد فطن الى خطورة هذا التزوج الممقوت الخليفة الثاني « عمر ابن الخطاب » رضي الله عنه ، وحظره على رجال السياسة والجيش(٢) ولعل انحراف العرب عن خطة عمر ، في ممتلكاتهم ، وإغراقهم في التزوج بهذا اللون من الاجنبيات ، في كل موطن حلوا فيه ، هو ما أفضى إلى انهيار ملكهم . وأولُ من جنى مرير الثمرات من هذا الزواج ، هو القائد (موسى بن نصير) حيث تزوج زوجة (رودريك) ملك القوط .

ونحن حين نتناول بحث أضرار التزوج بالاجنبيات ، نقصد بهن سوى الانسانيات السامیات ، اللائي بعد الاقتران بهن ثروة ، من الخير والفضيلة والحكمة ، يجب أن تذخر ، ويجب أن يسعى

---

(١) تاريخ أوربا الحديث وآثار حضارتها تأليف عمر الاسكندري وسليم حسن مطبعة المعارف ١٩٢٢ ج ٢ ص ١٢

(٢) مجلة الرسالة مجلد ٥ ص ٢٠٥٨

للبناء بين الشباب من كل قطر ومصر ، ذلك لان المرأة الانسانية العالية ، مهما يكن تأثيرها في زوجها ، أو أنجالها ، فانه تأثير كريم نافع للأمة كل النفع ، ومهذب كل التهذيب ، لأنه بطبيعته إنساني، والانسانية لا اختلاف فيها ولا تباين ، ولا تنازع ولا تخاصم .

على أن الانسانية ، ستظل متأخرة روحياً ، وستظل متحاربة عملياً ، وإن تقدمت في تهاويل العلوم المادية ، ما دام عمل توجيه المرأة إقطاعياً متحاجزاً ،ورجعياً آثماً، ينفث الشر والنكر والعداء.

إذن ، فالمرأة بصورة أكيدة حاسمة ، هي المربية الأولى للغرائز والعواطف ، والمؤثرة في توجيه نواياتها الطبيعية ، ولا يجهل كبير أثر توجيهها ، إلا جاهل أو متجاهل بتاريخ حياتهـــا ، أو مدي امكانياتها الصالحة في تربية أجيال الانسانية قديماً وحديثاً .

تأثير المرأة بواسطة زوجها كبير في التاريخ ، فهذه امرأة الملك الفرنسي (كلوفيس) استطـاعت - وهو الوثني المتحجر - وهي المسيحية المتبتلة ، أن تقتلع جذور الوثنية الصماء من أعمـاق قلبه ، وأن تشعل نفسه وضميره ، وتملأ قلبه بأضواء الايمان، فآمن بتأثيرها العميق ، وحسن تأتيها ، وبإيمانه آمن شعبه معه ، فانظر إلى مدى تأثير الزوجة في زوجها .

وقد فطن العرب إلى تأثّي المرأة الرفيق ، في طبع نفسية زوجها لطابعها ، وهذا (خالد بن يزيـد) - أول كيميائي عربي - يحتج بشدة على الحجاج ، حين خطب ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) ويطلب الى عبد الملك أن يأمره بطلاقهـا ، وإلا أصبح الحجاج بسبب هذه المصاهرة ، هاشمي النزعـــة ، وفي ذلك

خطر على دولتهم (١) .

وهـذا الاصبغ بن عبد العزيز الاموي ، خطب سكينة ابنة الحسين (رضي الله عنه) فلما علم عبد الملك ، ثارت ثائرته ، وأرغمه على تسريحها (٢) ، كما تزوج الجنيد - أحد قواد هشام - بالفاصلة ابنة يزيد بن المهلب - وهو عدو بنى أمية السياسي - فـأمره هشام بطلاقها وأرسل له من نكل به (٣) .

وهذا الاسكندر المكدوني ، أبى أن يقترن بابنة « دارا » بعد انتصاره الرائع عليه ، خشية التأثير والانطباع بطابعها (٤) .

والمرأة بطبيعتها ، تنفر من مباشرة التوجيه السياسي ، فان عافته رغبة عنه ، لا عجزاً ولا قصر باع ، لانها تؤثر الابقـاء على حياة الاجيال ، والسهر على نمائهـا ، وحسن تربيتها منذ الصرخة الاولى ، وهذا الامر يلذ لهـا ويسعدها ، لانه بوائم فطرتهـا الخيرة النزاعة الى السلام ، أما التوجيه السياسي فـانه كثير الخصوم ، جم العداوات ، لا يعطي هناءة ولا يهب راحـة ، وأكثر اللائي باشرنه بأنفسهن وأسرفن فيه ، انتهت حياتهن بـأحداث مروعـة ، كالخيزران ، وكليوباتره ، وزينب وشجرة الدر ، وبواديكا ، وجاندرك ، وديدون ، وشغب .

---

(١) العقد الفريد ٣ - ٢٢٦

(٢) الاغاني ١٤ - ١٦٣

(٣) المحاضرات ١ - ١٩٣

(٤) الاوابد ، لعبد الوهـاب عزام ، مصر مطبعة المعارف عام ١٩٤٢ ص ١٤٠

وإنا نفخر في هذا العصر بتوجيه المرأة السياسي ، فهو وإن لم يكن مباشراً ، إلا أنه توجيه تربوي سلمي إنساني خير ، وهو الواقع العملي في كل البيئات ، لدى المثقفات ثقافة عالية إنسانية فذة .

والذي حدانا إلى أن نفخر به ونكبره ، هو اعتقادنا أنهن فهمن أنه ملاك السلام الدائم ، وجلال الروح الانساني العام ، وفهمن فوق هذا أنه معول القضاء على كل الخصومات المقبلة ، فأعظم به من توجيه ، وأكرم به من أثر .

ونحن إذ نفيض في قدرة المرأة على التوجيه السياسي ، ومدى عمقه ، لا نقصد أن كل امرأة لها هذه القدرة ، كما أنه ليس كل رجل له ذلك ، وإنما الذي نريد أن نعلنه بصراحة أن المرأة الخيرة المثقفة ، تستطيع أن توجه محور السياسة العالمية ، إلى السلام والحق والحب ، بما لا يدخل في مقدور الرجل بحال ، إذ صلتها بالجيل الناشيء ، عملية تكوينية مؤثرة فعالة .

والمشاهد المحسوس ، أن المرأة متى اشتملت على روح وثابة ناهضة ، وعاطفة مشبوبة ، سواء كانت إنسانية واسعة ، أو قومية ضيقة ، فإنها بلا ريب ، يكون تأثيرها بالغاً من الروعة والجلال والسحر ، مبلغاً لا يستهان بآثاره الجليلة أبداً .

المرأة والدفاع

الدفاع الايجابي (١)

الدفاع عن النفس غريزة ، أودعهـــا الله في الانسان ، وسائر أنواع الحيوان ، وفي الذكور والاناث معاً ، سواء كانت فردية ، كدفاع الشخص وحده ، أو اجتماعية كدفاع الجماعة ، والعرب القدماء عرفوا غريزة الدفاع عن النفس ، وأسموها (حفيظة) .

ولسنا الآن في اتجاه التحدث عن غريزة الدفاع الفردية ، ومتى تكون رفيعة كالذود عن الحق ، ومثل الانسانية العليـا ، ومتى تكون وضيعة كالاعتداء عليه وعليها . وإنما كل اتجاهنا منصرف إلى درس غريزة الدفاع الاجتماعية ، لا في الرجل بل في المرأة .

إن الذي يجيل نظره في المجتمعات القديمة ، يلفي غريزة الدفاع الاجتماعية في المرأة واهنة جداً ، وبعبارة علمية صحيحة (مكبوتة) إذ الغريزة هي هي ، في المرأة والرجل ، كاللبوءة والاسد .

أجل ، إن الرجال في كثير من الامم منذ أقدم الازمان ، نسبوا الى المرأة الخور والجبن ، ونسوا أنهم استبدوا بأمرها ، وانتهزوا فرصة ميلها الطبيعي الى الانسانية والسلام ، وطبيعة تكوينها حين

---

(١) نحن في كتابنا هذا ، لا نجد من شرف أو فخر في قتال الانسان لاخيه الانسان ، وإن ذكرنا دفاع المرأة وأكبرناه ، إنما نذكره ونكبره ، ملاحظين ناحية واحدة ، هي صد العدوان عن الحرية والعقيدة .

يرتادها وهن الحمل والولادة ، فازدروها زاعمين أنها لا تحسن الاشتراك في صد غارات المعتدين ، بحجة أن على دمائهم وحدهم يقوم صد هجماتهم ، فسلبوها من جراء ذلك حقها في الميراث ، بل وجعلوها سلعة تباع (١) ، ومنعوها حق التعلم ، وزحزحوا عن كواهلهم جهود بناء الاسرة وتكاليفها (٢) ، وإعداد المؤونة ، وجعلوها من

---

(١) القانون الروماني يبيح للرجل أن يتنازل عن زوجته لمن لمن يريد رغم إرادتها (كتاب المرأة في مركزها الاجتماعي) ص ٢٩ كما كان يصح للكاهن الانكليزي القديم بيع الفتيات الحرائر وجعلهن قربانا بالحرق ، كتاب عائلة هيلانه ص ١٣٧

(٢) الفرس القدماء هم الذين سقطوا بالمرأة ، إلى درجة إباحة حق قتلها لزوجها إذا شاء ذلك . راجع كتاب حقوق المرأة في الاسلام وكم من خيانة للواقع والعلم أن تنسب مندوبة فارس الدكتورة كاظمي حيال الاجانب في مؤتمر المرأة القائم الآن في بيروت سقوط المرأة وتأخرها في ميدان الدفاع الايجابي والسلبي في الشرق قديماً وحديثاً ، الى الاديان والاسلام . ونحن لا نعتب عليها ، ولا على القائلين ذلك من قبلها ، ولكن نضع هذا الكتاب بين أيديها ليكون آية على شأو جهلها الفظيع بحقائق تاريخ حياة المرأة في السياسة والاجتماع ، في الشرق الذي تنتسب اليه . وكم يسرنا أن تنظر قارئاتنا في كتابنا دين ابراهيم طويلا ، متأملات في تعاليم إدريس وابراهيم . وقانون حمو رابي . ومثل الاسلام العليا ليعلمن أن القول الجزاف وارساله على عواهنه اصبح في هذا العصر لا وزن له ولا إحترام .

خصائصها ، بل بالغوا في استهانتها في بعض المجتمعات زاعمين أنها ليست من نوع الانسان (١) ، أما هم فوظيفتهم ركوب الجياد الصاهلة وامتشاق السيوف واللعب بالاسنة ، والذود ، والدفاع ، وصد الهجمات .

والواقع أن الدفاع الاجتماعي في المرأة ، يسمو سموه في الرجل ، هذه موقعة (ذي قار) (٢) ودجى الغبار المدلهم يسد الافق ، وأصوات الابطال والجنود تصمي الاذان ، أنظر ، ترَ (صفية الشيبانية) هي التي أثارت هذه المعركة العنيفة ، ووحدت بين قلوب العرب المتفرقة ، وزحفت لصد هجمات الجيوش على قومها .

أنظر ، تجدها باسلة جبارة ، قد احمرت عيناها ، واتقدتا كالجمر ، وارتفع صوتها الصارخ المتهدج ، وهي تحث الكتائب على المغامرة ، واقتحام الاهوال ، وما زالت كذلك ، وسيفها يسيل بالدماء ، حتى خلصت قومها من شر تلك الغارة الهوجاء الطاغية .

لله أنت يا صفية ، فقد استطعت أن تجمعي كلمة العرب ، وأن تكوني أنت المثل الأعلى للتضحية والمغامرة والبطولة .

لله ، ما أبعد رأيك ، إنك رأيت بعض أخواتك في هوادجهن كأنهن الدمى المصفوفة ، غير مشتركات في صميم المعركة ، وخفت على الرجال أن يغلبهم الوهن ، فيستسلموا للفرار ، ما دامت نساؤهم في أمن الهوادج ، فأخذت أنت ورفيقات لك تقطعن الحزم ، حتى

---

(١) كتاب المرأة في التمدن الحديث ص ٣

(٢) العقد الفريد ٣ — ٩٠

لم يبق هودج على ظهر جمل (١) .

لله جهادك المقدس الذي نصب قوس النصر ، إنه لم يكن إلا دفعاً للضيم وتمجيداً للحرية ، وتقديساً للكرامة الانسانية .

هذا يا صفية صاحب رسول الله ﷺ ، وفائد العرب الأعلى في (القادسية) « سعد بن أبي وقاص » يحتفي بوفادتك عليه ، ويكرم البطولة والنبل في شخصك ، وها أنت تقولين - لما لقيت من حفاوة وتقدير خليق بماضيك الباسل -

صان لي ذمتي وأكرم وجهي إنما يكرم الكريمَ الكريم

لله جهادك المقدس ، الذي نصب قوس النصر ، إنه لم يكن إلا انتصاراً لقضية الأمن والسلام . وذوداً عن الحق في أرفع مجاليه ، واسما ذراه

إنك كالنجمة المشعة على لمة الهزيع الاخير تؤذن بطلع الفجر

أو كالبرعم الريان . ما يكاد ينطلق من اسدافه حتى يعم الشذا والنور .

* * *

---

(١) نحن حين نصور المواقع التاريخية بين الأمم ، وحماسة النساء لا نقصد خيانه الانسانية وهدم وحدتها ، انما هو تشخيص لواقع الحال ، خال من كل نعرة وغرض غير التصوير .

(٤) م

وهـذا طيف « خولة ابنة الأزور » المـدجج ، لا يزال يقحم الصفوف ذائداً مدافعاً ، حتى أن « خالداً » نفسه ، أدهشته بطولتها وتداعي الفرسان بين يديها أشلاء ، ولم يخلها هي ، فأحب أن يعرف من هو هذا البطل المغامر ، فـكان كما يقول : (كلما اقتربت منه لأتعرّف عليه ، أشاح بوجهه عني ! ! (١) وأخيراً ، عرفته عرفته ،

---

(١) كم من جهل في قول المتهتكين (إن المرأة المحتشمة المتسترة ، لا تستطيع الجهاد والنضال) كذبوا . كذبوا . هذه خولة وأم عمارة وتماضر ورفيدة وأم سليط وسواهن من الصحابيات المجاهدات المحتشمات المتسترات ، يقدمن إليهم بطلان افترائهم عملياً ، وليس من دليل أكبر من الدليل العملي . ولو لم يكن كتابنا هذا استعراضاً تاريخياً . ولو لم تكن المؤلفـات والمقالات التي أذيعت حول ذلك كثيرة ، لأوسعنا الافاضة في هذا الموضوع ، وحسب قارآتنا المؤمنات العاملات أن ينشدن بكل فخار ، لصد أولئك المتهتكين ، قول الاديبة الكبيرة والمسلمة المجـاهدة والوطنية الباسلة السيدة عائشه تيمور :

بيد العفاف أصون عز حجابي وبعصمتي أسمو عـلى أترابي
وبفكرة وقـادة وقريحـة نقّـادة قـد كملت آدابي
مـا ضرني أدبي وحسن تعلمي إلا بكوني زهرة الالبـاب

وإن قارئاتنا سيجدن في الكتاب الخاص بجهاد المرأة الديني وتاريخ حياتها الخالدة فيه ، مـا يكون قرة لعيونهن ، ورضا لانفسهن ، وطمأنينة لقلوبهن .

هي خولة بنت الأزور (١) .

لله أنت يا خولة ، إن بطولتك كما أدهشت القائد الكبير (خالداً) أدهشت شاعرنا المجدد (شبلي ملاط) فقال :

أدموع خولة أم عقيق الوادي ... أيام نادى للجهاد منادي
لم تبك أخت ضرار خوفاً إنما ... شوقاً بكت لشهادة وجهاد
غبطت أخاها وهو يعرض رمحه ... فوق الجواد لغزوة وجلاد
أنا خولة أنا أخت فارس حمير ... فلألبسنّ القوم حلة عاد
هذا وبينا خالد في شوطه ... دامي الحسام يدل بالانشاد
لفتت نواظره بسالة فارس ... متلثم متوشح بسواد
حنق يدق كتيبة بكتيبة ... ويكاد يلهبها من الاحقاد
ورجال « وردان » تفر أمامه ... خوف البغاث الصقر عند طراد
فتساءلت عنه قبائل يعرب ... وتطاولت منهم اليه هواد

* * *

قل للأولى عزت بهم أوطانهم ... وتسوروا من طارف وتلاد
كونوا ضراراً في الجهاد وخولة ... إن الجدود تعيش بالاحفاد

* * *

وقد تجلى نبل الدفاع الايجابي ، في سيل الشفق على يد (فادية الهيتية) (٢) ، حين شاهدت (سليمان بن الحسين القرمطي) الجبار الممرور ، الذي هجم على الحجيج في العصر العباسي على حين غفلة ،

---

(١) الاعلام للزركلي ١ — ٣٠٠ ، وموجز سيرة خالد للعرفي ٨٨
(٢) الفرق بين الفرق ٢٧٣

فأجرى الدماء ، وقطع الاوصال ، ومزق سجوف البيت الحرام ، وقذف بجثث الحجاج في بئر زمزم ، حتى كانت حياته كالسرطان في جسم أمته العربية ، أو شك أن يودي بأبجادها ويمزقها كل ممزق .

أجل ، تجلى في أرفع مجاليه ، حين تناولت « فادية » حجراً ضخماً وقذفته عليه فحطمته شر تحطيم ، وفدت حياة أمتها بنفسها ، وكانت من الخالدات ، وما زال الناس ، كلما طافوا في هاتيك المواطن المقدسة ، ولمسوا الركن والمقام ، يباركون اسمها ، ويقدسون تضحيتها ، وإخلاصها ويسبغون لها الصلاة ، معترفين ببسالتها ، وصدق إيمانها ، وخلود جهادها .

وهذه زوجة الاسود العنسي - الاسود عدو النهضة الاسلامية ، في فجرها الذي ناهضها مناهضة القرم الشره ، غير فاهم مصلحة أمته ولا شئ المنافع التي تنالها من اجتماع كلمتها ، فراح يناهضها بالحديد والنار ، رغبة في تحطيم سعادتها وروح السلام ، الذي يدعوا اليه رسول الله ﷺ - تدبر المؤامرة السرية للبطش به وإراحة الامة من شِرته ، تدبرها بعزيمة وجرأة وإقدام ، غير راجية إلا من الله المثوبة ، ومن التاريخ خلود الذكر (١) .

وهذه (صفوة الملك) البطلة الدمشقية أم اسماعيل التي سجلت في التاريخ العالمي ، أن حب الامة فوق حب الحياة والابناء ، وإن كان حب الابناء فوق كل شيء .

ها هي نحس الارض تدور بها ، والسماء تساقطُ الرجمَ ، والابالسةُ فاغرة أشداقها ضاحكة بعيون مقلوبة ، والمردة يروحون

---

(١) الخضري ١ - ١٧٤ و ١٧٩

ويغدون منتصرين بهزيمة الخير والحق ، وتسمع هنا وهناك أصواتاً غريبة صارخة نادبة : خان إسماعيل خان أسماعيل ، إسماعيل إبنك ، فتذرع دمشق طولاً وعرضاً مهتاجة غضبي ، كأنها مارج نار متقد من لهيب الغضب ، وسعير الحماسة ، وهي تصرخ أين الخائن أين الخائن ، فما تكاد تراه حتى تهجم عليه هجمة اللبـاة الكاسرة ، وتنشب أظافرها في أوداجه ، ولا تتنفس الصعداء حتى تطـأ قدماها دمه النجس (١) .

وكم من غبطة تحسها قارئاتنا حين يشاهدن (صفية ابنة عبد المطلب (٢) عمـة رسول الله ﷺ وهي منقدة الحفيظة ، محمّرة العينين ، رابطة الجـأش ، يقظة ترصد المستخفين والمتسللين من الاعداء ، والمجاهدات الصابرات يتبعنها حذرات متربصات بين أبراج الحصن . وحسان !!؟ حسان الشاعر الكبير الذي يفخر :

لساني وسيفي صارمان كلاهما ويبلغ مالا يبلغ السيف مذودي

ويفخر :

لقد غدوت أمام القوم منتطقـا بصارم مثل لمح البرق قطّاع

يشاهدنه ملتوياً على نفسه في زواية نائية عميـاء ، من زوايا الحصن ، خشية أن يتسرب اليه عدو مهاجم على غِرة . . .

وصفية البطلة الحذرة الراصدة ، تبصر شبح عدو يتسلل زاحفاً ، تسلل القنفذ ، ليفتح ثغرة للأعداء ، فتبـادر إلى شاعرنا الكبير - رب الصارم القطاع - تستنجده ، ولكنه يزداد انكماشاً وفرقاً ،

---

(١) الخطط ٢ - ٨

(٢) الأعلام ٢ - ٤٣٤ ، الاصابة ٣٤٨

قائلاً بصوت خافت متخاذل : (أواه يا إبنة عبد المطلب، لو كنت أصلح لهذا لما اختبئت !!) وسدى حاولت أن تثير فيه الحماسة والذود ، وحين علمت أنها تنفخ في رماد ، تناولت عموداً ضخماً ، وخرجت، والشرر يتطاير من عينيها ، والحماسة الهاشمية قد عصفت عواصفها ، وثارت ثائرتها ، فهجمت على المتسلل كالصاعقة وجندلته ، ثم ثابت إلى شاعرنا البطل ، فارتعش لوقع أقدامها ، ولكنه اطمأن قليلاً حين شاهدها ، بل واستطاع أن يتنفس الصعداء حين قالت له : انتهى الأمر . ولكن عاد اليه الخوف والقلق لما أردفت قولها : هلم هلم ، خذ سلبه ، فوالله ما منعني من ذلك إلا أنه رجل) فامتقع لونه قائلاً : (مالي ولهذا يا ابنة عبد المطلب) .

وهذا عدو النهضة اللدود (مسيلمة) الكذاب، الذي لم يرق له اجتماع كلمة العرب، على دولة واحدة ، لا لشيء ، سوى أنه لم يكن هو مؤسسها ، ولا أحد من قومه بني حنيفة ، فأثار حرباً شعواء ، حتى أعيا أمره أبطال (الحديقة) (١) خالداً وجنده ، لولا ، أم عمارة نسيبة ابنة كعب ، التي أجهزت عليه ؟

نسيبة المجاهدة الباسلة التي كرم في شخصها بطولة المرأة ، وبعد نظرها ، وروحها الاجتماعية ، شاعرنا المفكر الحر (مارون بك عبود) بقوله :

لله أم عمـــارة من باسـل أنثى تطاحن أفحل الشجعان
لله در أبيـــك أنصاريـــة مضت الدهور وأنت نصب عيان

---

(١) تفاصيل معركة الحديقة في كتاب (خالد) للعرفي ص ٥٢

هي مجدلية (١) أحمد وسلاحها غير الطبوب ، ومدمع هتان
سلكت سبيل الله تحمل قربة تروي ظماء مجاهد حران
حتى إذا ما المسلمون تضعضعوا ومحمد أمسى بلا أعوان
طرحت بقربتها ، وسلت صارماً نفحت به عن سيد الفرسان
مهتاجة كلبوءة في غابة منقضة ككواسر العقبان
أنثى تذود ، يشدها إيمانها بالمصطفى ، بالله ، بالقرآن

* * *

وأين أنت من بطلة التكريم الحولي في فرنسا ، البطلة المغامرة « جاندرك » إنها لم تر من الشرف أن تستكين استكانة شعبها للواقع المسلح ، وإن كان فيه القواد والجنود ، فامتطت جوادها وانتضت حسامها ، وطفقت تستنجد الفيالق ، وتسعر القلوب بالحماسة ، كأنها ملاك من السما ، نزل ليقي البلاد عادية الأعداء ، غير مبالية بوفرة عددهم وعددهم ، وغير مكترثة لحياتها . . ، فكان الانقاذ ، وكان الشرف ، وكانت كبش الفداء (٢) ، ولقد أجاد شاعرنا الفنان عمر أبو ريشة في قوله :

---

(١) راجع قصة المجدلية في كتابنا « البراهمة »

(٢) فتاة تتخيل أن الملاك ميكائيل ، يأمرها بالثورة ضد المغيرين المحتلين ، قال عنها الكهنة عام ١٤٣١ إنها ممسوسة ، وبعد ربع قرن من حرقها برؤوها ، وأخيراً في عام ١٩٢٠ أعطوا قرارهم النهائي في حقها أنها قديسة مباركة ، جاءها المدد والعون من الله تعالى هلال يناير سنة ١٩٤٩ ص ١٤٨

نادت بفيلقها البتو ل وهز ساعدها المهند
وعدت إلى حرم الجها د السمح بالعزم الموطد
فتلاحم الجيشان فانـ دلع اللظى والهول أرعد
هذا يفروذا يكر م وذا يكب وذاك يصعد
والموت يأكل ما يلا قيه يد الطعن المسدد
حتى إذا نالت نوا جذه من الاشلاء مقصد
بدت البتول كما بدا من كوة الظلماء فرقد
تختال جذلى بالفخا ر وعزة النصر المخلد

* * *

وهذه الفتاة الكندية النبيلة « اورا سيكورد » ، التي أبت لها كرامتها ، أن ترى الانسان يكيد للانسان ، ويستغله استغلالاً بعيداً عن الشرف والمروءة والكرامة .

أجل ، أضرمت شعلة الثورة ، ونفخت في أبواقها بألسنة من لهب ، تصد غارات الولايات المتحدة (١) ، حين فكرت أن تجعل موطنها ، بعض ممتلكاتها .

ألا إنها بطلة كريمة قدرها التاريخ ، ومنحها شرائط المجد والاكبار ، حتى أن (أدوار السابع) ملك انكلترا حين زار كندا ، وجد من قلة الانصاف ، أن لا ينحني باجلال أمام الشيخة العجوز المجاهدة ، في منزلها ، بعد أن ذواها الهرم ، واستقر بها نائية منعزلة ، انحناءة سعد امام بطلة العراق صفية .

---

(١) كان ذلك عام ١٨١٢ وزارها الملك عام ١٨٦٠ ، راجع كتاب (الجنة تحت أقدام الامهات)

واشتراك المرأة في الدفاع الايجابي، مستفيض في التاريخ قديماً وحديثاً، وأية فارئة تجهل ما لزوجة «دارا» وابنتيه وأمه، من جليل الذود والدفاع عن وطنهن، حين طغى عليه الاسكندر؟ إنهن وقعن أسيرات في حبائل الاسكندر، إلا أنهن ظللن رائدات للحرية، متبتلات للكرامة والشرف، ما ظـــل في التاريخ من يدوّنه أو يتلوه (١).

وهذا «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، الذي كان يقول: وددت أن يكون بيني وبين الفرس جبل من نار، لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم، حفظاً لحقوق الجوار، وتقديراً للصلات التقليدية القديمة، ولولا أنّ الفرس زحفوا يحاولون إطفاء شعلة النهضة الانسانية، التي أوقدها رسول الله ﷺ، لما احتاج «رستم» أن يزج بجيوشه الجرّارة، وفيها زوجته وبنات كبار القواد (٢)، يقاتلن، ويوقدن شعلة الحماسة.

ما أعظمهن!! إنهن وقعن أسيرات، ولكن مع منحهن ما هن جديرات به، من الحرية والكرامة، كما قال أبو الطيب:

فعدن كما أخذن مكرمـات عليهن القـلائـــد والمـلاب

والمرأة العربية ككل أخواتها بنات الانسانية، لا تلتوي على نفسها، ولا يخيفها الحديد والنار، لدى واجب الدفاع المقدس.

---

(١) الاوابد، لعبد الوهاب عزام، ص ١٤٠

(٢) مجلة الجندي اللبناني عدد ٦ السنة ١٦ ٢ ت ١٩٤٧

ها هن يخضن معركة (أحد) (١) مدججات، ويحطن بالفرسان حذرات يقظات ، مراقبات للجبناء والمنافقين ، كي لا يجدوا منفذاً يتسللون منه لواذا ، حفظاً لمعنويات الجيش ، وكلما رأين منافقاً متسللاً ، أو جباناً متخاذلاً ، هجمن عليه وبطشن به ، وهذا شأنهن في أكبر المعارك التاريخية الفاصلة (٢) .

وهذا الأمير المجاهد الكبير ، والشاعر الحامي الفذ ، « أسامة ابن منقذ » (٣) لم تتخلف أمه ولا أخواته الأميرات الباسلات ، رغبة عن الجهاد ، في أشد معاركه هولاً ، وأضيقها مارجاً ونحاساً ، مما فرض لهن الخلود على صفحات الدهر ، بأطيب الحمد ، ألا إنهن مجاهدات صابرات ، في زمن قل فيه المجاهدات الصابرات .

والمرأة كما اشتركت في معارك البر ، لم يفتها أن تشترك في معارك البحر بتضحية وعزيمة وأناة .

أجل ، لم يفتها أن تتسلق السواري ، وتشد القلوع الخافقة كالسحب ، مصارعة عتوّ الغوارب والامواج ، وزحوف الاعاصير الهوجاء .

فهذه « الرميصاء بنت ملحان - أم حرام » (٤) الصحابية ، تمخر البحر ، وتضرب بحيزومها اللجج صاعدة هابطة ، حتى تنزلَ

---

(١) سيرة نور اليقين وسيرة ابن هشام (معركة أحد)

(٢) موجز سيرة خالد العرفي ص ٨٨

(٣) حقوق المرأة في الاسلام ص ١١٠

(٤) كتاب (أشهر مشاهير الاسلام) « فتح قبرص »

شعلة من نور الوحي وهدايته ، في جزيرة (قبرص) فتصبح علما للمجاهدات المرشدات ، ومناراً للقداسة والخير .

وهـذا الملك العبـاسي (أبو جعفر المنصور) ، لم يـدع نساء العرب يقتحمن الحروب ، ويزوي آله للرفاهية والنعمة ، بـل يزج بهن في أخطر المعارك ، وأشدها هولا ؟ ، في حصار القسطنطينية (١)

* * *

ولعل قارآتنا يتساءلن ، ما بالكم أعرضتم عن ذكر بطولة الملكات ، وهن كثيرات جـداً ، ألم يفخر التاريخ ببطولة زينب وسميراميس وبوديكا ، والزباء ، وديدون . . .

ألا إن إعراضنا كان عن عمد ، لأن قارآتنا غير ناسيات أن رؤساء الدول ، في هاتيك الأزمان السحيقة ، كانوا بأنفسهم يقودون المعارك ويتصدرونها .

وإنا نجد من جد الحياة ، وصرامتها في أنفسنا ، وهول أشباحها ، أن نذكر قارآتنا الشابات اللائي وافين سن تحمل المسئوليات ، وأعباء التكاليف ، ونضالها المرهق المرير ، بما يفرضه عليهن طموحهن الجبار ، وحق الحياة الحديثة ، ومفاجـآت أحداثها المروعة ، ومخاوف نذرها المستطيرة .

أي نذكرهن بوعي أترابهن الغربيات ، وما يضمرن من عزائم حديدية قاصمة ، وما يعددن من عدد مرعبة باطشة ، ليستقبلن الغد الحالك المخيف ، بالمناعة والذود والتضحية والمغامرة ، وكل أسباب الانتصار والوقاية .

---

(١) حقوق المرأة في الاسلام ص ١١٠

أجل ، نذكرهن بحديث فتاة كان المعتاد في أمثالها ، أن تنحر الوقت في تصفيف شعرها ، وصقل وجهها وتأنق ملبسها ، تلك هي وريثة التاج البريطاني (اليزابيت) التي تنادي متقدة العواطف ، مهتاجة النفس ، في أكبر مجتمع للمرأة عقد في انكلترا ، لتجنيد المتطوعات في الجيش ! إن العالم لا يزال بعيداً جداً عن أي تفاهم سلمي صادق ، على شدة ما كنا نرجو أن نري السلم موطد الاركان بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . وعلى الرغم من كل ذلك ، إنا نشاهد السحب السوداء ، لا تزال مكفهرة تسد وجه الافق طيلة هذه السنوات التي بلغ فيها جبلي ، سن تحمل المسئوليات ، وفرض إداء الواجبات والتكاليف ، وإني أرى من الواجب الحتم أن أنوه باقدام الفتيات البريطانيات ، اللائي لا يشغلهن السهر على تربية الجيل (الطفل) ، عن الاعداد الكامل للتضحية في خدمة الجيش(١).

الدفاع السلبي

آن لقارئاتنا أن يتساءلن عن شأو امكانيات المرأة في الدفاع السلبي ، بعد أن اطمأن على مكانتهن في الدفاع الايجابي ، ولعلهن يخلن دفاع المرأة السلبي قليلاً ، أو مقصوراً على ناحية واحدة ، لا لا ، يا قارئاتنا ، إنه كبير جداً ونواحيه من العسير أن يلم بها سفر .

وإذا كان من الحق أن يقول الرجل : (جل الدفاع الايجابي

---

(١) جريدة النضال ٢٩ آذار سنة ١٩٤٩

هو من صنعي) فللمرأة الحق أن تقول : (وجل الدفاع السلبي هو من صنعي).

وكم من ليال قاتمة حمراء في غضون الحرب تزلزل الآطام الحديدية المسلحة زلزالاً عاصفاً، وتخنق أنفاس الأرض والسماء بالنحاس والدماء مسهدات مكدودات من شتى الأعمال المجهدة المتواصلة في الانتاج الحربي ، لا يعرفن الليل من النهار ، ولا الحياة من الموت ولا السعادة من الشقاء ، لأنهن مستغرقات في الجهاد والاعداد . ألا إن معظم الاعدادات الحربية ، وشتى مطالبها تقوم على أكتافهن.

يا رعى الله دفاعهن ، إنه نبيل كريم ، ليس فيه ظمأ للطغيان ونهم للجبروت والتسلط ، إنهن يدافعن حباً في السلام ، واصفاء للأمن ، وكرامة للانسانية ، وما وجدنا المرأة في يوم مجدت المعتدين ولا أعانت الظالمين راضية ، ولن تمجدهم أو تعينهم راضية هذا لن يكون ، هذا لن يكون .

أواه ؟ ما أعسر حياتهن ، أيحسبن آمنات حين يثير الرجال الحروب ، ويحسدن لأنهن يشاهدن بعيدات عن مواطن احتشاد الجنود ، متكاثرات في مواطن الاعداد ، لتهيئة المؤن ،وكل وسائل الانتصار ؟ تلك نظرية بالية ليس لها اليوم من ظل في واقعنا الحربي ، إن الأخطار لتنهال على مواطن التهيئة والمؤن، أكثر مما تنهال على مواطن احتشاد الجنود (١) وأنى للجنود أن يواصلوا الدفاع الايجابي ، إذا لم تكن إمدادات الدفاع السلبي آمنة واقرة

---

(١) راجع نظرية لورنس عن الحروب الحديثة في كتابه (الملك فيصل)

في متناول ايديهم ،لدى كل طلب ، والميادين الايجابية المدرعة بالحديد والنار نفسها ، ليست خلواً من المرأة ، أما تحتشد في ساحاتها فرق الممرضات ، ومشافي الاسعاف المرافقات للجند ، في أشد المعارك هولاً . والمشرفات على وسائل التغذية والكسي من قريب ، ألا إنها لكلمة صادقة إذ تقول المرأة : « ومعظم الدفاع السلبي هو من صنعي ، وجانب من الدفاع الايجابي كذلك » .

هذه صفحات التاريخ منذ أبعد الازمنة إلى اليوم منشورة بين أيدينا ، تطالعنا بأطياف المجاهدات الساهدات ، وهن يذخرن كل ثرواتهن ، ويحشدن كل قواهن ، لصد غارات المغيرين المعتدين ، وإحراز الانتصار ، والقضاء على الحرب .

أجل ،نشاهدهن في الشرق والغرب ،في روما وأثينا وآشور ، في مصر والهند والصين ، في جزيرة العرب .

ونعتقد أن قارئاتنا ، تثور بهن رغبات التجول والنظر والدرس ، للعظة والاعتبار ، في ماضي هاتيك الأجيال والأمم .

ها هن يسرن معنا إلى جزيرة العرب، إلى (طيبة) إلى مسجد رسول الله ﷺ ، وها هن يشاهدن حشد الصحابيات الجليلات بين يدي رسول الله ﷺ خاشعات لما سمعن من كلامه خالعات أقراطهن ودمالجهن والعقود والخلاخل، بين يديه صلى الله عليه وسلم، لتكون صيانة لمثل الاسلام ، المنزلة لاسعاد الانسانية ، وصد غارات المشركين المسلحة (١) .

---

(١) البخاري : باب حفظ العلم

وها هي السيدة عائشة نابي إلا أن تجعل مرطها الاسود (١) ، علماً خفاقاً لجيش المؤمنين الناهضين ، المناضل دون هاتيك المثل ، إيماءً الى ما تشتمل عليه من سؤدد وخير ، وأنهم إن صدوا شرة المغيرين ، عليهم بيد الدفاع فأنهم يصافحونهم ، ويساوونهم بأنفسهم ، ويشفقون عليهم بيد الاسلام .

* * *

وهذه الجارة العزيزة ، والاخت الكريمة ، تركية ، يجتمع فيها حشد من النساء ، يربو على الخمسة آلاف ، وماسة غرتهن الوضاءة ، الزعيمة الثرية والمثقفة العالمة (خالدة أديب) (٢) التي حكم عليها بالاعدام وشردت غير مرة في سبيل أمتها ، أبت لها نفسها الانسانية الكبيرة وروحها الطاهرة البرة ، أن تكون محلاة كدمية الاطفال ، يزدهى بها ما يزدهى ثم تلقى في التراب .

أجل ، لم تدخر ثروتها للحلي والزينة والاثاث والرياش ، بل أبت إلا أن تكون خير ممثلة لدور أختها سيدة نساء بني العباس « زبيدة » (٣) التي أنفقت ضخم ثرائها الموروث في سبيل أمتها ، فقدمت خالدة كل ثروتها أمام هذا الحشد الحاشد ، ليكون قوة لصندوق الامة ، وهي تقول ما قالته زبيدة لابنها الامين حين سألها « يا أماه لماذا لا أراك تتحلين ، وكل النساء يفعلن ذلك » ؟ تقوله بكل عزة وكبرياء « حسبي اليوم حليا ما ترين من أعمال خالدة »

---

(١) الخطط ٥ - ١٢

(٢) بلاغات النساء ، القسم الثاني

(٣) أحسن القصص ١٠٨

توجيه علمي لاعطيات تفوق المرأة

في الدفاعين الايجابي والسلبي

لقد اتضح لقارئاتنا شتى أدوار حياة المرأة ، في الدفاعين الايجابي والسلبي ، واتضح لهن افتراء القائلين : « إن الشرق لم يشاهد في يوم من الايام ، أثراً خالداً للمرأة ، في السياسة والاجتماع ، لأنه مهبط الاديان » ! !

ونحن هنا نعلنها كلمة صريحة صادقة ، لولا الشرق ، ولولا أديانه ، لظلت المرأة دفينة تحت انقاض الخرافات ، وركام التقاليد .

هذا خاتم الكتب السماوية ، القرآن الكريم ، ما استعرض المرأة في سورة من سوره ، إلا وأضاف اليهـا القوة والجرأة ، والثبات والاقدام ، وهي لديه كالرجل : سواء في خيرها وشرها ، وأيمانها وكفرها ، وعلمها وجهلها . بل نجدها في كثير من آياته ، وحمل على الطغمة المهاويس الذين كانوا يعتقدون أن ولادة الانثى لهم ، ضعف وهوان ، وإملاق وشر ، وخزي وعار (وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه في التراب ألا ساء ما يزرون) .

يا لله ، كم من إعجاز علمي للقرآن المجيد في ذلك ، ولعل دهشات قارئاتنا ، حول إعجاز القرآن العلمي لا تنتهي إلى حد . إذا هن

سايرن التقدم العلمي قليلاً ، وأبصرن على ضوء تجـــاربه العملية الدقيقة ، بواعث تلك الصفات الجليلة ، التي تفرد بذكرها القرآن. أبصرنها في متانة بناء المرأة الجسمي والنفسي .

وكم يسعدنا أن نهمس في آذانهن ، أن العلم ألفاها في النساء أكثر منها في الرجال ، ألفاها في احتمالها الطبيعي ، لأوزار الحمل والولادة واحتفائها بأثقالها ، وسعادتهـا بذلك . واحتمالها هذا اقتضى أن تكون أشد من الرجل قوة في كثير من الحالات كمتانة بناء الخلايا . ومن هنا كان ثباتها لدى الاهوال وتقلبات الاجواء ، أصرم وأعنف

وها هو العلم ، يثبت أن نضال جسدها للأوباء (١) أشد ، وأن غددها أمتن ، لذلك لا ينزل بساحتهـا الصلع ولا يزورهـا ، وهذا وإن كان مراداً إلهياً لحفظ زينتهـا ، إلا أن ذلك المراد ، تجلى في قوة بنيتها . وقد بلغ الذين يموتون بالقرحة المعوية من الرجال ، خمسة أضعاف من يمتن من النساء (٢) ، وهذا يدل على أن تكوين أمعائهن يفوق تكوين امعاء الرجل ، بقدر تلك النسبة نفسها . وقدروا أن ذلك إمداد لغذاء الرضيع المتتابع .

وأيضاً اكتشف علماء الانجليز ، أن بناء الشبكة العصبية ، في المرأة أقوى ، ومن هنا عللوا الانهيار العصبي الذريع في الرجال ، لدى الغارات الالمانية ، حتى تجاوز فيهم الخامسة والستين في المائة (٣)

---

(١) عرف العرب القدماء المكروبات ، وكانوا يقولون : هذا مكان موبوء ، أي فيه مكروب .

(٢) و (٣) مجلة الصياد ٣١ آب ١٩٤٨

ومهما يكن من شيء ، فثبات المرأة الانكليزية ، لدى جحيم الغارات الالمانية المنصب ، واستجماع نفسها هو آية دالة على صدق الاحداث الهائلة ، التي قصها علينا التاريخ ، عن ثبات المرأة العربية قديماً .

فهذه « أم كلثوم » ، شقيقة فارس الجاهلية الفتاك ، « عمرو بن عبدود العامري » ، تشاهده مجندلاً بيد فارس الاسلام البطل الفتى « علي بن أبي طالب » فلم ترعب ، ولم تجزع ، ولم تضطرب ، بل تقول بكل جرأة وثبات وفخر ، وهي تملك كل عقلهـا ، وكل شاعريتها ، وكل منطقها :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنت أبكي عليه آخر الابد
لكن قاتلـه من لا يعاب به من كان يدعى أبوه سيد البلد(١)

وكم في كلمة عمة رسول الله ﷺ « صفية ابنة عبد المطلب » من قوة وشجاعة وجلد ، وكم فيها من عزة وصبر وإيمان ، وكم فيها من إكبار لمثل الاسلام العليا ، وإخلاص عميق لله . لما شاهدت أخاها سيد الشهداء (حمزة) مغتالاً بيد (وحشي) (٢) المأجور : (أنت في الله قليل) ، وإذا كانت ترى مقتل أخيها قليلاً ، فما اعظم ما تعده نفسها الكبيرة من تضحية في سبيل الله ، وما يراه الناس كثيراً ، فهو في جانب ثبات ابنة عبد المطلب قليل وقليل جداً .

وهذه السيدة (تماضر = الخنساء) (٣) ، تؤم معركة القادسية

---

(١) المنثور المنظوم

(٢) نور اليقين

(٣) سر الانحلال ، والروضة الادبية

الفاصلة ، وفي صحبتها بنوها الفرسان الاربعة ، إنها تفرض عليهم الجهاد ، وتفرضه حتى الموت ، ويمتثل أولئك الشباب الابطال ، شرط أمهم الحنون الصارم !! فيقاتلون على كثب منها، ويستشهدون جميعاً ، وهم يؤدون إليها تحية الاستشهاد . وفي النهاية تقف على جثثهم ، بعد مقتلهم جميعاً قائلة : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وإني أسأل الله تعالى أن يجمعني بهم في مستقر رحمته . فلا يسع الخليفة الثاني ، حيال هذا الثبات ، وهذه التضحيات ، إلا أن يبادر إلى الحفاوة بها ، وإسباغ الرفدها ، فيجري عليها رواتب أبنائها الشهداء لتكون لكل امرأة في العالم ، أسوة الاخلاص ، والتضحية ، ومنار الجهاد والنبل ، وعلم البطولة والصبر .

ولاجل هذه القوة الجسدية والنفسية ، التي نوهنا بها ، حطم الاسلام كل القوامات ، المضروبة على المرأة ، لدى الامم القديمة ، من عرب وفرس ، وهند وصين ، وروم ويونان ، وفرض على الرجل القوامة العليا ، التي تحفظ كرامة المرأة وتسمو بها ، ألا وهي قوامة تحمل تكاليف العيش ، والاشراف على المنزل ، إذ المرأة بمقتضى سلطتها الداخلية ، وأعباء مسئولياتها الفادحة ، محال أن تقوى على ذلك .

أجل ، فلا قوامة في الاسلام للرجل ، على أموالها (١) ولا على

---

(١) إن تصرف الرجل بأموال المرأة وأثاثها ، ووجوب اشتراكها في نفقة البيت ، معروف في القانون الروماني ، والقوانين الاوربية المتأثرة به ، حتى أن فرنسا لم تسمح للمرأة بحق التصرف بمالها دون موافقة زوجها ، إلا منذ ١١ عاماً . راجع القانون الروماني للسويدي والقانون الروماني للشيشكلي .

حياتها (١) ولا على حرمانها من الميراث (٢) ولا على عضلها (٣) ولا على استعبادها (٤) وهي كالرجل في

(١) إذا مات اليوناني القديم فللوارث حق ذبح زوجة المتوفي على قبره وإذا نصر العبراني على أعدائه ، فله حق ذبح بنته قربانا لاله اسرائيل ، راجع تاريخ هيرودتس المجلد الثاني ، وسفر القضاة ١١ - ٢٩ .

(٢) حرمان المرأة من تركة الزوج ، موجود عند جميع الأمم القديمة ، وأما حرمانها من تركة الاب ، فمعلق على عدم وجود أخ لها ، والعرب منعوها حق الميراث بحجة أنها لا تحسن الدفاع لدى غارات الاعداء ، والصين بحجة أنها لا تحسن عبادة روح أبيها . راجع المرأة في التاريخ والشرائع .

(٣) كان هذا الداء مستطيرا في الامم القديمة ، ولا تزال بقاياه الى اليوم ، حتى في أوربا نفسها . والعضل وقوف الولي في وجه التي تريد التزوج .

(٤) أي بيع حريتها التي يملكها الوصي ، سواء كان أباً أو زوجاً ، وهذا البيع كان موجوداً عند قدماء الانكليز والعبرانيين والصين وفارس ، حتى أن بعض سكان البلقان كانوا يبيعون بناتهم للأتراك ، وهذا البيع حرمه الاسلام ولعن فاعله ، لان حرية المرأة لها ، لا لوصيها ولا لاحد في الارض ، راجع المرأة في مركزها الاجتماعي ص ٤ وحقوق المرأة في الاسلام ص ٢٧ ونساء الاسلام ص ٢٤

التعليم (١) ولا تمنع من الاحتفاظ بشخصيتها التي ورثتها من أبويها (٢) كما أنه ليس له حق العبث بعرضها (٣) .

وكان يلذ لنا أن نسهب البحث في أغلال الغرامات ، وتطورها لدى الامم كافة ، قبل نزول القرآن المجيد وبعده ، ولكن اثرنا أن نرجىء ذلك ، لكتابنا « حياة المرأة في الشرائع والاديان » .

ولعل قارئاتنا لن يسخطن بعد اليوم ، حين يسمعن أمثال قول أمير شعراء الانكليز « شكسبير » حين يجعل المرأة عين الضعف :

---

(١) وأما قوامة حق العلم ، فحسبك أن تعلم أن المرأة في اليونان ما كانت لتستطيع أن تستنشق رائحة العلم ، إلا إذ استخفت في البسة الرجال ، بل لم يكن في باريس آخر القرن الثالث عشر إلا استاذة واحدة ، ودام هذا التشديد في أوربا للقرن السادس عشر ومات هنري الثامن ملك انكلترا وهو يحذر من تعليمها ، راجع المرأة في الشرائع ، والمرأة في التمدن الحديث ص ٢١ ، والحال والمآل ص ٥

(٢) ليس للمرأة بعد التزوج في القانون الروماني وفروعه ، من شخصية في نسبتها الاولى ، بل تذوب في شخصية الرجل ونسبته ، وهذا الذوبان المفروض ، كان في الزواج القانوني ، وهو الزواج الروماني المعروف بـ (المانوس)

(٣) وهذا العبث يسمى بالقانون الروماني ، بحق تنازل الزوج لمن يهوى ، رغماً عنها ، وأما قدماء الجرمن فيقسرونها على أن تكون للضيف : المرأة في مركزها الاجتماعي ص ٢٩

« أيها الضعف إن اسمك هو المرأة » (١) ويجمع باكون حين ينسب ضعفها وشرها ، لفقدها النفس ، ولانها ليست من نوع البشر (٢). وأما (ترتليانوس) فقد جعلها باب الشيطان « أيتها المرأة أنت باب الشيطان) (٣) وجاء رابعة الاثافي (٤) القول بتنزيه الله عن خلقها ، وإنما الذي خلقها هو إله الشر (الشيطان) وأن ضعفها الذي فطرت عليه ، هو رحمة من الله بالعالم ، ليسلم من شرها .

---

(١) مجلة الصياد ٣١ آب ١٩٤٨

(٢) عقد مجمع باكون عام ٥٨١ ميلادي ، المرأة في التمدن الحديث ص ٣

(٣) الحال والمآل ص ٥

(٤) أصبح هذا مثلاً لما يستنكر ، فالتقيد بالثلاث ليس فرضاً لغويا ، على أن هناك من يجعل الاثافي أربعة .

وقد تأثر الادب العربي ، بهذا الاعتقاد المخزي القديم حتى قال بعضهم :

إن النساء شياطين خلقن لنا وكلنا يتقي شر الشياطين

ثورة الحفيظة الدستورية المسلحة

من الحق على قارئاتنا ، أن يتعمقن الناحية الفاصلة ، بين ثورة الحفيظة الشرعية التي هي قوامة الأمة والدستور ، وآية الحياة الاجتماعية السامية ، وبين الثورات الهدامة الانتهازية الخائنة ، والناحية الفاصلة بينهما واضحة جداً ، ما دمن يدركن أن الأصول الدستورية ، فيها كل المثل الانسانية العليا ، المشتملة على سر التطورات الدائمة ، للمعارف والعلوم ، والقوة والحضارات ، وفيها كل الحيويات والامكانيات التقدمية ، المطردة أبداً ، وفيها كل بواعث الأمن والسلامة ، والاجتماع والمساواة والحرية والتضحية ، والسعادة والخير ، والفضيلة والهدى والخلق .

ولا ريب أن قارئاتنا قد ازدهين بامكانيات المجاهدات الصابرات لدى الدفاعين ، ازدهين بالأماني الحسان للانسانية والأمة ، وشمرن عن سواعدهن ، وحررن العزيمة ، للأمجاد والخلود ، والشرف العظيم ، الخليق بأمثالهن في هذا الجيل الحديث .

ولا ريب أنهن يؤمن بأن ثورة الحفيظة الشرعية ، سواء كانت في نطاق الاحتجاج والنصح والتوجيه ، أو تجاوزتها إلى الكفاح المسلح ، فان الضمانات الدستورية والحرمات القانونية ، والأمان ، لا تشمل الثائرات الهدامات . أمثال : قرة العين ، وسجاح ، وأم قرفة ، وأم زمل ، وغزالة . . . لأن ثوراتهن المسلحة ، لم تكن

دستورية ، وانما خارجية شريرة محطمة ، وانتهازية هدامة للأمة والدستور ، فهن بجرمات قطعاً .

إذن فقارئاتنا يدركن - إذا كن مثقفات - أن معارك الحفيظة الدستورية المسلحة ، لا تكون شرعية مقدسة ، إلا بعد تفاقم الخطر ، وتحدي الدستور ، والعبث بمقدرات الامة ، والاستهانة بمصالحها ، والاعراض العامد عن كل نصح وإرشاد موجه من الشعب ورجال القانون . وحينئذ تكون الثورة شرعية دستورية مفروضة على الافراد والجماعات ، سواء كانوا حكوميين أو عسكريين أو مدنيين ، وسواء كانت تأييداً للدولة ضد الانتهازيين الهدامين المعلنين العداء للدستور ، كالمجاهدات المتطوعات في جيش أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب ، ضد الخوارج ، أمثال عكرشة ابنت الاطرش ، والزرقاء الهمدانية ، وسودة ابنت عمارة ، وأم الخير البارقية ، أو كانت ضد الدولة المستبدة الجائرة ، الخارجة على الدستور ، كالمجاهدات والشهيدات اللائي رافقن ركب سيدنا الامام الحسين ، واشتركن معه في الذود والدفاع عن الدستور ، أمثال « أم وهب » و « زينب الكبرى » وزوجتي مالك بن نسير ، وخولي بن زيد ، اللتين رفضتا زوجيهما المجرمين ونشزتا احتجاجاً على متابعتهما ليزيد واشتراكهما في مقتل الامام الحسين ، غير عابئين بأقداس الدستور الذي من أجله قاتل الامام الحسين ، وفي الواقع من أجل أمثالهما المسخرين للهدم ، وهما لو آثرا نصرة الدستور ، لعاشا تحت ظلاله وادعين راضيين برضوان الله ، ولما أعدما مع من أعدم من الوالغين في دم الامام الحسين عليه السلام .

ويحدونا الواجب قبل أن نستعرض المجاهدات ، في سبيل الدستور ، في هذا المجتمع العربي الوسيع ، أن نعلن ، أن لا دستور ولا مجاهدات قبيل الاسلام . فقد كان العرب يعيشون في هذه الفترة أوزاعاً ، في الشام والعراق والجزيرة ، دستورهم تقاليدهم وعاداتهم القبلية المتوارثة .

وأما بعد الاسلام ، ونزول القرآن فقد أصبح لهم دستور ، يستنبطون على ضوء أصوله قوانينهم ، ويستوحون منه اتجاهاتهم في السياسة والاقتصاد والاجتماع وكل بواعث الحضارة والتقدم .

ولعل قارئاتنا يحتججن قائلات : « ليس القرآن دستور العرب فحسب ، وإنما هو دستور الانسانية جمعاء ، إذ نصوصه تؤكد ذلك وتعلنه في كل مناسبة » .

هذا حق ، ولا يجافي ما ذهبنا اليه ما دمنا نعتبر أن مهبطه في أعراق هذه الامة ، وعلى اعلام مشاعرها المقدسة . وما دامت لغتها محراب تلك الاقداس ، وسدة ذلك النور والجلال ، وما دام — مهما تقلبت الاجيال والعصور ، والحضارات واختلفت الدول — هو مناط أحلامها ، وموئل أمانيها ومستقر حيويتها وبواعثها التقدمية ، في الاجتهاد القانوني العام ، والسير الحضاري المستمر . والنضال دونه وإن كان من حق الانسانية جمعاء ، الانسانية المحررة المثقفة الواعية . ومن حق المسلمين جميعاً . إلا أنه من حق هذه الامة العربية ، آكد وأوثق ، إذ ليس لها بدونه — مهما اختلفت مذاهب ونحلا واتجاهات — من وحدة أو جماعة أو قوة ، أو نور أو هدى ، أو إنسانية أو تفاهم في سلم أو حرب .

وما زالت تطالعنا من شرفات التاريخ ، المجاهداتُ المعتصمات بأقداس الدستور ، تطالعنا سعيدات ، بما ضحين من أنفس وأموال وبنين وأزواج ، في سبيل رعايته ، والسهر عليه والذود عنه .

هذه راية سيد المجتهدين الامام علي بن أبي طالب ، كأنها الشمس ترسل أشعتها الوهاجة المتقدة ، في أعماق قلوب المجاهدات الدستوريات فتستطير حماسة ، وتطير شعاعاً دون حياضها .

يا لها من راية كريمة ، إنها راية القرآن ، ترفرف حانية ناصحة مخلصة ، تحاول بكل ما أوتيت من إيمان وبقين ، وبكل ما أوتيت من رفق وإشفاق ، وبكل ما أوتيت من حجة وبيان ، وبكل ما أوتيت من قوة وسلطان ، أن تضم إلى صدرها الذين شقوا عصاها ، وتألبوا عليها ، وتمردوا والتووا على عرام أهوائهم ، مكر الليل والنهار ، يضمرون اغتصابها ، والنفاذ منها إلى نيل الممتنع تحت ظلالها ، بكل ما سوّلته لهم نفوسهم من فتن هوجاء ، وإن بددوا الشمل ، وجاوزوا حمى الدستور ، وطعنوا الأمن وأراقوا الدماء .

أما المجاهدات المغامرات ، فكن يقاتلن دونها مضحيات بكل ما يملكن من قوة ، وهن بصيرات بروح الدستور ، واعيات لماذا يقاتلن ، ولماذا يجاهدن .

هذه البطلة الشهيرة « أم الخير » إحدى المجاهدات الدستوريات تنطلق تحت راية الامام ، كأنها السهم ، وسيفها مصلت في يدها ، كأنه شرارة البرق في دجى الليل .

إنها تنادي المجاهدين الدستوريين من المهاجرين والأنصار ، مفهمة إياهم أنهم يشيّدون بجهادهم الحق ، العدالةَ المطلقة ، « إن الله

قد أوضح الحق وأبان الدليل ونوّر السبيل » .

وتنادي الجبناء الذين طار بنانهم ارتطام الخيل بالخيل، واشتباك الأسنة بالأسنة ، وتهاوي السيوف كأنها الشهب المذنبة « أفراداً عن أمير المؤمنين ، أرغبة عن الاسلام ، أم ارتداداً عن الحق: « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أعمالكم »

وتفهمهم أن هذه أول مجاوزة لأصول الدستور ، وقضاء على قانون الشورى ، وأن الامر إذا تفاقم ، وتم لهؤلاء ما يريدون من تمزيق كلمة الدستور وكلمة الامة ، استحكمت بدعة الخروج ، وأصبحت ديدن الطاغين المنتهزين ، وأحبولة العابثين المارقين ، فيتمثل لها المجتمع الغربي ، وقد كثر في جوانبه الهدامون المزقون والمسرفون الكاذبون ، أفاعي البشرية وثعالبها ، فتضطرب مشفقة وترفع يديها مبتهلة الى الله تعالى ، إصلاح ذات البين، ورأب الصدع والقضاء على الجور « بيدك يارب أزمة الامور ، فاجمع الكلمة على التقوى وألف القلوب على الهدى واردد الحق إلى أهله »

وتأخذها حال غريبة كأنها تشاهد هوّة الباطل فاغرة أشداقها تكاد تبتلع الامة ، وجحيم الفرقة والشتات والفتن والحروب ، تحت أقدام هؤلاء ، فان لم يثبتوا ويخلصوا النية ، ويصدقوا الجهاد هوو جميعاً ، هوو جميعاً ، « يا قوم والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ، ومن لم يعمل للجنة هوى في النار ، جاهدوا قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ويظهر الظلم »

هذه أم الخير التي لم يجحد نبلها في جهادها ، ولا اخلاصها في قتالها ، حتى معاوية نفسه ، استقدمها لما كان يكبر من بطولتها

وكرامة نفسها وقوة حجتها ، ويحاورها بأناة ورفق :

هو : كيف أنت يا خالة وكيف كان مسيرك

هي : لم أزل في عافية وسلامة ، حتى صرت اليك ، فأنا في عيش أنيق عند ملك رفيق

هو : مازحاً مبتسماً : بحسن نيتي قد ظفرت بكم

هي : أعيذك بالله من باطل القول

هو : بالله إلا أعدتي عليّ ما كنتي تقولين

هي : بغضب ، ما كنت أزوره ولا أرويه ، وإنما هي كلمات مضت ، فان شئت أسمعتك الآن سواها

هو : - خائفاً - لا ، لا ، دعي عنك هذا .

وهذه أم البنين الاموية المنصفة النقية البرّة ، شقيقة الخليفة العادل « عمر بن عبد العزيز » وزوج الوليد بن عبد الملك ، ما كان أبغض اليها من رجل يمشي على الارض من الحجاج.

إنها تحمل له الكراهية والمقت ، وهي فاهمة أنه سفاك حقود ، يمكر بنظام الشورى في الاسلام ، ويهدم من قواعده ما يهدم ، وهو آمن مطمئن كأنه بنكت الارض بمخصرته ، وهو حين يطغى ويستبد ويمكر ويفتك لا يبقي على مصلح ولا خيّر ، ولا سياسي كريم ، فلا تكاد تراه يخلو بزوجها ، وتعرف أنه هو ، حتى تثور محتجة على زوجها « فوالله لان يخلو بك ملك الموت أحب إلي من أن يخلو بك هذا الرجل » .

وكم كانت شجاعة صريحة ، حين استقدمته اليها ، وأطالت وقوفه ، ولم تأذن له بالجلوس حين سمحت له بالدخول ، ولم تفاتحه بالتحية

أو سواها ، بل قالت « إيه يا كليب أأنت الذي تفخر بقتل عبد الله ابن ذات النطاقين (١) ، أول مولود في الاسلام ، فوالله لولا أنك شر خلقه ، لما ابتلاك بقتله .

أأنت الذي تفخر بشجاعتك وتضحيتك على النسا ، فوالله لقد نفضنا الطيوب من غدائرنا ، ونزعنا الحلي من أيدينا وأرجلنا ، وبعثناها شوكة للجيش وعدة ، أين أنت وقد أثخنتك الجراح ، ويحك أما كنت بين يدي غزالة كالارنب أما خجلت وسنانها غارز بين كتفيك في حومة الوغى ، تفر ولا تلوي على شيء حتى سخر منك القائل :

أسد عليّ وفي الحروب نعامة (وعناء) تنفر من صفير الصافر
هلا كررت على غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

* * *

ثم أمرت به فأخرج ذليلًا وهو يقول « فوالله ما سكتت حتى خلت نفسي ذهبت ، وحتى كان بطن الارض أحب الي من ظهرها

ونعتقد أن قارئاتنا ، لن يجدن في مجاهدة دستورية ، من الجرأة في القول ، والاصرار على الحق ، والنضال عن الدستور ، ما يجدنه في (أروى) ابنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

يسترضيها معاوية ، وهو في ثراء ملكه ، وشوكة سلطانه ، بالتحف النادرة والهدايا الثمينة ، لتسدل إغفاءة على ما كان ، وتعترف له بدستورية رئاسته ، كما اعترفت لابي الحسن من قبل ،

---

(١) تعني أسماء ابنت أبي بكر التي سميت بذلك لانها قدت نطاقها لوضع زاد رسول الله ﷺ يوم الهجرة .

فتأبى إباءً شديداً ، وتصارحه مصارحة المؤمنة الواثقة من الله بالرعاية والنصرة والنصفة « يا معاوية ، لقد اسأت لابن عمك الصحبة ، وأخذت غير حقك ، من غير بلاء كان منك ، ولا بيعة من الأمة ، ولقد تأبت بما فعلت ، عن سنن من سلف »

وحين أمتن عليها بما أجزل لها من الكثير الكثير (أما والله لو كان علي مما أمر لك بهذا) . أشرقت سروراً ، وابتهجت رضا وفهمت أن الرجل ، حمد من حيث لا يعلم ، واعترف بأمانة علي وحرصه على ثروة الأمة ، وهو يحسب أنه ينال (صدقت صدقت ، إنه أدى الأمانة ، وعمل بأمر الله ، وأخذ به ولم يضيع ، ولم يخن الله في ماله ، ولم يعط أحداً منه شيئاً الا ما يستحقه . والله قد فرض في كتابه الحقوق ، وبين أهلها ، فأخذ بها وأعطى) (١)

وهذه « أم وهب » (٢) تشايع الامام الحسين ، في غضبته الدستورية المشهورة المقدسة ، وإذا كان عبد الرحمن بن أبي بكر ، رفض بشدة أن يبيع ضميره بالبدر التي بعثها اليه معاوية ، ليبايع يزيد ، قائلا (ردوها ردوها فوالله لا أبيع ديني بدنياي) فكم بالأولى أن يغضب الحسين وأن يثور ، وأن يطالب باعلان البيعة الشرعية ، قبل أن تقتل وهي في مهدها . وهكذا ثار الامام الحسين وناضل وجاهد ، وقاتل وقتل في سبيل الحق والدستور

وكم عز على أم وهب ورفيقاتها أن لا يشتركن في هذا الجهاد

---

(١) سر الانحلال ٢٠٨

(٢) ابن الاثير ج ٤ — ٣٣

المقدس ، غير حافلات بالوعد الوعيد ، والانذار الشديد ، الذي وجهه اليهن يزيد .

أجل عز عليها كما عز على الامام الحسين، أن ينحر دستور الأمة بمال الامة وسلاح الامة فما استطاعت أن تكتم ثورة نفسها ، وتغفل مستسلمة للواقع المسلح الغاشم ، أو تفتح أطماعها وتزوغ مزاغ النفعيين الانتهازيين، مرض الامة الفتاك ، وداؤها الدوي .

ألا إنها جاهدت جهاد الحسين وأخلصت إخلاصه ، واستشهدت استشهاده ، واستطاعت أن تضع في أتون الحياة الدستورية الواعية في المجتمع ، شرارة واحدة بجانب تلك الشعلة الكبرى المستطيرة التي أسعر أوارها المقدس ، أبو عبد الله الحسين .

والظلام مهما تكاثف ، والغيوم مهما تلبدت ، فان إعصاراً واحداً يقتلعه من جذوره ، ويقذف به في هوة العدم .

وهذه دمشق توافيها زينب الكبرى بعد نهاية المعركة وفي صحبتها نساء آل البيت وذراريهم .

إنها تنظر الى يزيد نظرة ملتهبة حمراء ، وتنطق بكلمة الدستور العليا — كلمة الله — غير مكترثة لاستبداده ، ولا حافلة بطغيانه وتنذره سوء العاقبة ، التي لا بد أن تنزل بالذين ينحرفون عن هداه بأعمالهم ، وتلوكه ألسنتهم رياء وإفكا (ثم كانت عاقبة الذين أساؤا السوءى أن كذبوا بآيات الله ، وكانوا بها يستهزؤن) وتحاسبه بصرامة على عبثه بمالية الامة التي أخذ ينفقها باسراف ويتجاوز بها حقوق الدستور وينتهك بها المحارم .

لله أنت يا زينب ، إنك قرة عين الهاشميات الباسلات ونجمة

فجر الاسلام الطالع على الدنيا باضواء مثله العليا، وإشراق هداه إنك أعطيت لنساء الانسانية جمعاء درس تحمل الاهوال والثبات والتضحية والايمان، والصدق والجرأة، ورفعة الحفيظة الدستورية المسلحة.

فما نحسب أن أمة تتخذك نساؤها أسوة، إلا وتكون بلا ريب، خير الأمم حياة وحرية ووحدة وقوة ونبلا.

* * *

وكم من سعادة نحسها قارئاتنا تشرق في أعماق قلوبهن إشراقاً، وتمور موراً، حين يجدن أن جزاء العدل الالهي لا تستعجل موازينه القصاص والحكم في شيء، استعجالها في وتر دماء الافراد والجماعات المراقة بيقين في سبيل قدس الدستور.

هؤلاء الجنود الاشرار الذين مالئوا يزيد، على علاته، واشتركوا في مقتل الامام الحسين، الغاضب لدستورهم، والمنتصر لاسعادهم، لم يفلت واحد منهم، من قضاء العدل الالهي المتاح، على يد من هو أشر منهم، وأشد فتكاً، المختار بن عبيد الثقفي.

ونحن حين استعرضنا في بحثي الحفيظة الدستورية، السلبية والايجابية، شهيرات المجاهدات الدستوريات، ما قصدنا سوى الانتصار للحقائق الانسانية العليا، والثقافات التقدمية الواعية، والبطولات الشرعية الكريمة، وما خلا ذلك فلا حاجة لنا فيه ولا مأرب. بل نرى الانسان المهذب أسمى وأكرم وأشرف من أن ينحط دون الحيوان، في منازعه ومآخذه ومآتيه، وصلته بأبناء جنسه.

* * *

وكان من حق القارئات علينا في هذين البحثين ، أن نستعرض المجاهدات الدستوريات في شتى الأمم ، قديماً وحديثاً ، كالمجاهدات في الثورة الانكليزية (١)، والثورة الألمانية اللوثرية الاصلاحية (٢) والثورة الفرنسية (٣) ، والثورة الكندية (٤) ، والثورة الهندية التحريرية التي قادتها راضية (٥) ، وكل الثورات الحديثة في الشرق والغرب .

ونحن لا نجهل أن هاتيك الثورات الدستوريات ، قد اشتملت في الجملة ، على مجاهدات نبيلات ، وبطلات باسلات ، لا يتنزلن عن المجاهدات اليعربيات اللائي ذكرناهن ، حماسة وغيرة وتضحية ومغامرة ، ولكن ذلك يطيل المدى بقارئاتنا ، ويضرب بين أيديهن السهوب ، فآثرنا ارجاءه الى موطن آخر .

---

(١) في القرن الاول للميلاد ، كتاب عائلة هيلانة

(٢) القرن الخامس عشر ، تاريخ الاصلاح

(٣) تاريخ أوربا وآثار حضارتها

(٤) القرن التاسع عشر ، الجنة تحت أقدام الأمهات

(٥) القرن الثالث عشر ، حقوق المرأة في الاسلام ، ومشاهدات في الهند

المرأة والبيعة

ليس غريباً أن يسمو الاسلام بالمرأة سموّه بالرجل ، وأن يعنى بها عنايته به ، وليس غريباً أن يطرح النبي ﷺ ، تقاليد الجاهلية التي تحقر المرأة تحت قدميه ، طرحه لكل الوثنيات ، وليس غريباً أن ينوّه بامكانياتها لدى كل مناسبة ، فانهم يجهلون مدى آثارها ، وجلال سلطانها في كل إصلاح وخير وهدى ، إذ ليس في طبيعة الوجود ، من أصغر ذرة إلى أكبر الأجرام ، من تفاوت في تكوين الحياة ، وسر الخلق بين الذكورة والانوثة والموجب والسالب .

وها نحن أولاء في هذا العصر ، نشاهد ثمرارة العلم المادي ، تنفذ إلى أعماق عالم الذرة ، وتكشف لنا من عجائب نواياتها ما تكشف ، فاذا هي أزواج ، وإذا التعاون وثيق ومحكم بينهما : ما فيه من قلق ولا نشوز ، ولا تنافر ، ولا تفاخر ، ولا خصومة ، بل ما فيه سوى وحدة العمل الدائم ، للابقاء على جمال الحياة واستمرار الوجود . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (١) .

ولا ريب ، أن مصير التعاليم الهدامة ، التي تحقر حقوق المرأة وتجعلها وراء وراء ، هي ومجتمعها إلى البوار .

هذا رسول الانسانية الاكبر صلى الله عليه وسلم ، وجد في

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٠

أعمال خديجة من الاخلاص والنشاط ، والتضحيات في سبيل الدعوة ما يعدل أعمال رجال ورجال . وجد فيها بعد النظر ، ونفـــاذ البصيرة ، وعمق الفهم ، ويقظة الوعي ، حين ثاب اليها من (حراء) وبوادره ترجف ، ما جعلها خليقة أن تنال فخر الابد ، وأن تكون أول إنسان على الاطلاق ، أحرز سبق شرف البيعة على الاسلام (١)

سقياً سقياً للمرأة ، فهذه « خديجة » كما كانت نجمة البيعة الاولى التي التمعت في أفق الاسلام الاعلى ، رضاءة زاهرة ، أيضاً كانت « سمية » نجمة الشهادة الاولى ، التي ازدهرت حمراء ، تحملها أخواتها بنات نعش ، في غمار الشفق تكرمة للتضحية ، وإكباراً للبطولة والايمـــان .

وأولاء فارثـاتنا ، لو صعدن همساً عقبة (منى) تحت أسدال الظلام الحـالك ، في منتصف الليل ، وفتحن أعينهن الكبيرات ، منعماتها ملياً شطر المسجد الحرام ، لالفين المبايعين من أهل المدينة يزحفون ، من خلف مضارب الحجيج ، في ذلك السكون المخيم ، زحف القنافذ بعيداً بعيدا ، إلى سفح الجبل ، وهناك يستديرون ، هالة خلف هـالة ، فتنعكس على وجوههم أضواء صاحب الرسالة ، وهم يعلنون إليه ، إيمانهم بكلمة الدستور العليا ، التي أوحاها الله ، ويبايعونه على الذود عنها ، والجهاد في سبيلها ، والدعاية لهـــا ما تطاولت بهم الحياة وامتد العمر .

---

(١) خـال صاحب تاريخ الاسلام السياسي الدكتور حسن ابراهيم حسن ، أن أول امرأة بايعت على الاسلام هي « عفراء بنت عبيد بن ثعلبة الانصارية » في ليلة العقبة الاولى ، ١ - ١١٦

ولالفين « نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو » الخزرجيتين(١) تنهضان للبيعة ، وهما متحمستان، حماسة فائقة ، غير متخاذلتين عن شيء مما بايع عليه الرجال، شأن بيعة أختها « عفراء » (٢) في الحجة الخالية ، فكن جميعاً باكورة الثمرات الخيرة ، والعقليات الناضجة المهذبة ، لنساء المدينة اللائي أعلن إسلامهن ، بصورة رائعة جداً ، يوم حفاوتهن البالغة ، بمقدم رسول الله ﷺ ، حفاوة لم يكن لها من نظير في التاريخ .

أني يكون النظير، وهذه يثرب في أبعد سهوبها، وأنأى بطاحها، تعج بأهلها يوماً بعد يوم ، عجيجاً داوياً ، دون الأودية ، وعلى رؤوس الآطام والهضاب ، وفي أفواء الطرق ، وقد أعدت كل ما لديها من زينة ، وبهجة ومسرة ، وكل ما تملك من قوة وعقل ، احتفاء بمقدمه ، واستعداداً لمبايعته ، صلى الله عليه وسلم .

ولا بد أن تصغر في أعينهن كل احتشادات للمرأة ، رأينها أو سمعن بها ، وأنى يكون لاحتشاد في أنفسهن من قداسة ونبل ، وإيمان بكلمة الوحي العليا ، وإعلان للطاعة والجهاد والتضحيات ، ما لهذا الاحتشاد المقدس ؟؟

ها هن يعلن إخلاصهن ، واستمساكهن بأقداس الوحي ، وطاعته ما تراوحت نسمات الحياة بين جوانحهن ، إنهن يقبلن على رسول الله ﷺ ، لدى مقدمه ، مشرفات الوجوه ، ودفوفهن وأناشيدهن ، تملأ أسماع المدينة وأوديتها ، بهجة ورضا .

---

(١) محاضرات ١ – ٨١

(٢) تاريخ الاسلام السياسي ١ – ١١٦

أجل ، ينشدن مزمعات ، أنهن لا يعرفن بعد اليوم ، زعيماً مخلصاً ، ولا قائداً مضحياً ، ولا مصلحاً نزيهاً ، ولا خطيباً صادقاً ، ولا مشرعاً حكيماً ، ولا إمام ـاً عبقرياً سامياً ، سوى صاحب الرسالة ، صلى الله عليه وسلم .

طلع البدر علينـــا من ثنيـات الوَداع
وجب الشكر علينا مـا دعـــا لله داع
أيهـا المبعوث فينـا جئت بالامر المطاع
قـد لبسنا ثوب عز بعد تمزيق الرقـاع

وهذه أضواء النبوة تشرق في محياه ، وتلمع أطيافها المقدسة ، في ابتساماتـه الصافية المغتبطة ، بهذه المبـايعة الصارخة الداوية ، والتأييدات الرائعة البارعة .

ولعل قارئاتنا ، إذا شاهدن بعد اليوم ، الوحي الالهي يعظم من شأن المرأة ما يعظم ، ويمجد إسلامها وإيمانها ، وقنوتها وصدقها وصبرها ، وخشوعها وتصدقها ، وصومها وحفظها لعفافها ، وذكرها لربها ، تمجيده للرجل ، ويعلن أسباغ المثوبة لها إسباغه للرجل (١) لا يعجبن ، ذلك لأن المرأة فهمت جلال مثل الاسلام العليا من أول يوم ، وقامت بقسطها الوافر ، في الجهاد والتضحية ، وتحمل أعباء متاعب الهجرتين (٢) والكفاح المستمر الجاهد ، خير قيام (إن

---

(١) جميع الامم الوثنية لا تعترف للمرأة بهـذا الحق الروحي السماوي ، ولا يوجد الاعتراف بهذا الحق إلا في الاديان السماوية .

(٢) للمرأة في صدر الاسلام هجرتان كالرجل ، هجرة الحبشة ، وعدد المهاجرات إحدى وعشرون امرأة ، وأما هجرة المدينة فقد بلغن من الكثرة ما يجعلنا نحث قارئاتنا على مراجعة كتاب (الاصابة)

المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » (١) .

ويلذ لنا أن نلفت أنظار قارئاتنا قبل أن نسدل الستار ، إلى حشد المرأة الكبير ، البالغ (٢) سبعة وخمسين واربعمائة ، يوم فتح مكة تجاه الصفا للبيعة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشرف عليهن أخذاً للبيعة ، وإنفاذاً لامر الله (فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) .

يا لها من مبايعة سامية كريمة ، تقدم الطاعة لكلمة الدستور المقدسة ، على طاعة أي إنسان يحاول مجاوزته ، مهما كان حاله ووضعيته ومكانته .

وكم من إعجاز للقرآن المجيد ، في تربية الحفيظة الدستورية ، على هذا النهج السامي في نهي المرأة - طبعا الرجل - عن العصيان الخاص ، فيما ينزله الله على رسوله من معروف .

يا لله ، ما أعظم هذا الاعجاز والسمو في تربية الضمائر ، إنه اشتمل في تضاعيفه فرضية العصيان لدى الامر بسواه ، ولو كان الآمر رسول الله الذي - يستحيل قطعاً - أن يأمر بذلك .

---

(١) سورة الاحزاب آية ٣٦

(٢) تفسير الجلالين لآية المبايعة . سورة الممتحنة . نقلاً عن ابن الجوزي .

وفي توجيه عصيانهن في هذا اللون الرائع ، سمو بحفيظتهن الدستورية ما بعده سمو ، إذ لا يبقى لاحد في أنفسهن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من حرمة أو رعاية ، أو إذعان ، إذا تجاوز المعروف .

وكم في مجاوزة المعروف من العبث بمقدرات الامة ، والقضاء على حياتها ، والمقامرة على حساب مستقبلها . وقد فطنت زعيمة المبايعات (هند بنت عتبة) إلى كل ذلك من قوله تعالى : (ولا يعصينك في معروف) . فقالت وهي مطمئنة على جليل مستقبل المرأة في العالم ، وتقدير قيمها ، بعد اليوم (فوالله يا رسول الله ما أرسلت إلا بالخير والرشد ومكارم الاخلاق) .

ولو فطنت المرأة في العالم ، إلى ما فطنت اليه (هند بنت عتبة) من كنوز الاصلاح ، والحب الانساني العام ، والخير والرشد والسلام ، الدفينة في موسوعات الرسالة المحمدية ، لكان العالم اليوم على حال غير هذه الحال .

المرأة والفلاسفة المتشائمون

ليس في الأمم المهذبة السامية ، من يحقد على المرأة ، أو يستهين بشأنها ، أو يتنكر لها ، ونحن حين نقول : ليس ، نقولها بنفيها العام الشامل ، وملابساتها القريبة والبعيدة .

وإذا لج السطحيون ورفعوا عقيرتهم قائلين : « هذا أبو العلاء وطاليس وشوبنهور ، وسواهم كثير ، أعداء أعداء . قلنا لهم ، لعلكم قرأتم بعض كلمات جارحة ، لها بواعثها وملابساتها الخاصة ، فخلتموها عقيدة في أنفسهم ، لا يتزحزحون عنها .

أجل ، هذا أبو العلاء الذي يقال عنه إنه عدو المرأة اللدود ، يستشيط غضباً ، وينقد حماسة ، ويهيج الناس انتصاراً ، لتلك الفتاة البريئة ، التي اغتال شرفها سكّيرو المعرة — وهي مارة حيال حانتهم — حتى أنزل بهم كل ألوان النكال ، وغادرهم جثثاً هامدة تحت أنقاض الحانة ، ولولا اعتذاره لصالح بن مرداس ، والي حلب ، عن أهل المعرة حين أثاره قوله :

ولو لم يقوموا سامعين لصوتها لخلت سماء الله تمطر جمرها

لما أبقى على رجل منهم ، لرضاهم أن يكون بينهم أمثال أولئك الأوغاد .

* * *

لعلهم شاهدوا أبا العلاء ، متبتلاً مستغرقاً في آرائه ومذاهبه ، غير مكترث للزواج ، ولا مقبل عليه ، فخالوا ذلك عداءً للمرأة .

وفي كل عصر يتبتل رجال ونساء ، للعلم أو الدين أو الفن ، ولكننا لا نقول : إن المتبتلين أعداء المرأة ، وإن المتبتلات عدوات الرجل ، وإذا كان التبتل والانصراف إلى المعرفة والعلم والدين ، يعد عداوة وبغضاً ، إذن فالبغاة الآثمون ، الذين يرفضون ، عامدين أن يرتبطوا بحبل بناء الأسرة ، الرافع لشأن المرأة ، وينصرفون إلى الالتهام والشره في كل مكان ، واطئين بأقدامهم كل حرمة للمرأة وكل كرامة ، وكل حق شرعي مقدس ، هم في نظرهم ، أصدقاء مخلصون ، وذائدون مناضلون عن حقوقها .

* * *

المرأة لا تنتقم ولا تحقد ، ولا ترى لها عدواً لدوداً يستحق الاعدام ، سوى الذي ينتهز فرصة عوزها ، فيسقط بها مخادعاً ، مترائياً متظاهراً بالغيرة والتألم والحب ، وإذا طلبت إليه برجاء وإلحاح وإخلاص ، أن يشاطرها حياة الاسرة الدائمة ، وحقوقها المشروعة ، يأبى عليها واعداً مريباً ، فاذا أصرت وألحت وأبت ، تسلل من بين يديها ، بلعنة ولؤم كالأرقم السالخ .

مسكين أبو العلاء ، يُلعن ويُشتم بحجة أنه عدوّ المرأة ، وأنه يفتن الشباب عن الزواج ، وما هو إلا مفكر ، عاش رهين المحبسين وتبتل للنفع العام ، والسمو بعقلية المجتمع ، حاملاً أوزار الجهد ، وأوقار النّصَب ، حتى إذا نفّس عن نفسه بقوله :

« هذا جناه أبي عل....يّ وما جنيت على أحد »

أصبح لديهم هداماً لفرضية بناء الاسرة ، قاضياً على استمرار بقاء الأمة .

ولو رأى أولئك السطحيون اللاعنون ، كرب الانحطاط المحيطة

بالمجتمع، وتزعزع الحياة السياسية القلقة الرعناء، والطغيان المسيطر وأشداق الموت، الملتهمة السعادة والخير والهدى والنور، في كل مدينة أو قرية، والفساد المهدم هنا وهناك، ورأوا أبا العلاء، كيف يحمل أوجاع هاتيك الأرزاء، وآلام تلك المصائب والنكبات في نفسه، لفهموا غرضه في قوله المتقدم.

إنه مفكر حر، يريد الخير والسعادة، والحياة الحرة الشريفة الكريمة، للانسانية جمعاء، ولولا ذلك ما انقطع طول حياته يسدي النصائح، ويعرض الاصلاحات ويدعو إليها، وهذا الذي يفسر بيتيه الاتيين أوضح تفسير، ويعطينا رأيه الصحيح الذي يدعو إليه:

دنياك دار كل ساكنها متوقع سبباً من النقل
والنسل أفضل ما تركب بها وإذا سعيت له فعن عقل

على أن أبا العلاء عود السامعين أمثال هذه الآراء المتناقضة، بحكم تناقض الملابسات والبواعث، والمؤثرات المحيطة به في ذلك المجتمع المتهدم، وقد سلف أن ذكرنا سبب ذلك في كتابنا دين إبراهيم

* * *

وعلى ضوء حادثة الفتاة السليبة، يمكننا أن نفسر سائر أبياته وآرائه، التي توجب تجهيل المرأة، إذ يخشى أن يضطرها التعليم، إلى الصلة بذوي الريبة الأشرار، وفي الصلة بهم الطامة الكبرى، على حقوقها المشروعة، وسعادة مستقبلها، وكرامة شخصيتها كربة بيت. والمرأة لم تخلق ملهاة أو لعبة لهذا أو ذاك، ثم تطرح تحت الاقدام.

أجل ، إنه رأى في حادثة الفتاة السليبة ، مـــا ادمي فؤاده وأسهد ليله وأوجعه طويلاً .

وإذا كان أبو العلاء أوجب تجهيلها قديمـــاً ، ففي هذا العصر الحديث كثير من العلماء والمصلحين ،لا يرون تعميم تعليمها العالي ، لأنه ينتزعها من بناء الاسرة انتزاعاً صارماً ، ويجعلها غير مستطيعة الصبر على تـكاليف غريزة الأمومة ، من حمل وولادة ، وفي ذلك ضياع لحقوقها المشروعة كربة أسرة ، وقضاء على استمرار بقاء الحياة

والحق أنه ليس كل رجل لديه الصبر والجلد والامكانيات للتعليم العـالي ، وكذلك ليست كل امرأة ، فـالمعضلة منحلة من نفسها ، وما هي معقدة إلا في خيال الـكاتبين وعقولهم .

على أن التبتل للفلسفة ، والعلم والمعرفة والدين، كان ولا يزال بين الرجال والنساء ، فهذا « طاليس الفيلسوف اليوناني ، أشغلته فلسفته عن فكرة بناء الأسرة ، ولم يقل عنه أحد : إنه عدو المرأة من أجل ذلك .

وهذا شأن أفـلاطون وبوذا ولاوتسو وابن تيمية والآلوسي وجمال الدين الأفغاني ، وعبد الفتاح الامام وأم الكرام المحدثـة المشهورة .

وما يقصد الفلاسفة المتبتلون ولاسواهم من كلماتهم الجارحة ضد المرأة العموم أبداً .

هذا « شوبنهور» الفيلسوف الألمـاني ، الذي اشتط في كلماته ضد المرأة ، لا يقصد بها سوى أمه ، التي قست عليه وناصبته العداء خشية أن تنهار شهرتها العلمية ومـكانتها بجانب مكانه .

الكتب التي تحت الطبع ، والتي ستصدر قريباً

١ – تستطيع أن لا تمرض

وهو الكتاب الذي وضعه الطبيب الكبير السيد خالد عطوى نصيف باللغة الانجليزية ، وهو يشرح بدراسة علمية حديثة ، أصول الوقاية من الأمراض ، والتخلص منها حالا بعد نشوبها بطريق الحميات وتصحيح اتجاه التداوي بواسطتها .

وهو أحدث كتاب يعالج الامراض المستعصية المزمنة ، كالسكري والربو ، بطريقة حاسمة أكيدة مجربة .

٢ – « الاسلام بين السنة والشيعة »

وهو أول كتاب يصدر من نوعه ، بطريقة أدبية سهلة ، على ضوء الاصول العلمية ، وهو يهدف :

أولاً – الاسلام ليس للسنة ولا للشيعة ، بل للانسانية .

ثانياً – الاسلام بناية الوحدة الانسانية ، من هم مؤسسوا المذاهب الاسلامية ، تاريخ نشوء المذاهب ، أصول مناهج الاجتهاد المذهبي ، مكانة آل البيت النبوي السامية ، ومذاهبهم ، كمذهب سيدنا جعفر الصادق ومذهب سيدنا زيد بن زين العابدين وسواهما ، مذاهب الجمهور : كالمذاهب الاربعة ، ومذهب الظاهري والاوزاعي والليثي وسواهم . الاسباب التي تتخذ اداةً للتفرقة بين أهل الاديان وأهل الدين الواحد . . . . الخ

٣ – الكتاب الثاني من حياة المرأة في السياسة والاجتماع

وهو يشتمل على البحوث الآتية : عن المرأة – أبحاث عامة – المرأة والسلام ، مكانة المرأة في الرأي العام ، المرأة والمصلحة العامة المرأة والمشاريع العامة ، المرأة والتربية القومية الخ .

ـ جدول التصحيح ـ

لقد أفلت على الرغم من حرص الطباعة بعض كلمات يسيرة جداً لا تخفى على القارىء اللبيب

صفحة	سطر	الصواب
٣	١	نُصيف
٤	١٧	أبوا
١٠	١٣	مستفيضة
١١	٢١	إسعاف
٢٤	٢٢	والفينيقيين
٢٥	١٦	أورليانوس
٣١	٩	الارزاء
٣٣	١	رجع جرثومه
٣٤	٩	واستمتعن
٣٨	٨	بعظمة
٤١	٧	الازمان
٤١	١٦	منازعهن
٤٧	١٢	والعلم
٦٤	١٥	الاساء مايحكمون
٦٩	٤	آثرنا
٧٥	٢٢	هووا جميعاً

الفهرس

صفحة	العنوان
٣	المقدمـــة
١٤	التوطئـة
٢٠	ملحوظة لا بد منها
٢٢	سياسة المرأة في الشرق الادنى
٣٢	سياسة المرأة في الشرق الاقصى
٣٦	سياسة المرأة في الغرب
٣٩	المرأة والتوجيه السياسي
٤٦	الدفاع الايجابي
٦٠	الدفاع السلبي
٦٤	توجيه علمي لامكانيات تفوق المرأة في الدفاعين
٧١	ثورة الحفيظة الدستورية المسلحة
٨١	الحفيظة الدستورية السلبية
٨٢	المرأة والبيعة
٨٨	المرأة والفلاسفة المتشائمون

DATE DUE

JAFFET LIB.
30 JUN 2016
Circulation Dept. 4

A.U.B. LIBRARY

301.412:D124hA:v.1:c.1
الزعبي، محمد علي
حياة المرأة في السياسة والاجتماع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01011000

301.412
D124hA
V.1